ألف ليلة وليلة

حسين جوهر   محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

٤



ألف ليلة وليلة

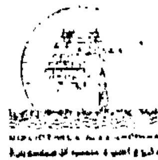
الجزء الرابع

الصياد والعفريت

كتبه

حسين جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية





دار المعارف

رسوم: الفنانة النمساوية ستيلا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء الرابع

صفحة



أبو قير وأبو صير

(١)

كان فى سوقِ الإسكندرية صَباغ اسمُه أبو قير ، وحلّاق اسمه أبو صير ، وكانا متجاورَيْن : حانوتُ كل منهما لِصْق حانوت الآخر

وكان الصباغ أبو قير معروفا بِسُوء الخُلُق ، ولؤم الطبْع ، وانحطاطِ النفْسِ ، لا يتصوّن عن عملِ الشّر ، ولا يأْنفُ من إتْيان الرّذيلَة ؛ فكان متحجِّرَ القَلبِ ، صلْدَ الفُؤادِ ، أنانيًّا ، لا يُهِمُّه من دُنياه إلا إشباعُ بطْنِه بأشهى المأكولات ، ويسلُكُ للحصول عليها طرُقًا مختلفةً شريفةً ؛ وغيرَ شريفةٍ ، ولا يَعنيه أو يَسُوءه ، أنْ يذُمّه الناسُ أو يغْتَبُوا عليه ، أو يَسلقُوه بألسنة حِدادٍ ؛ فكلّ شيء من ذلك لا قيمةَ له عِندَه ، ما دامَ قد امتلأ بطنُهُ ؛ ولذلك كان يَحتالُ على الفُقَراء والمساكين ، يَسْلبُهم مالَهم ،

ويبتزُّ منهم دَراهِمهم بوسائلَ مُختلفةٍ ، فهُوَ محتال نصاب ، بارعٌ فى تدبيرِ المكايدِ ، ونَصْب الشِّراك .

فقدْ كانت عادَتُه مع حُرَفائِه الذين يَسوقُهم سوءُ طالِعِهم إليه كى يصْبغوا ملابسَهم أَن يطلب منْهم أجرةً مقدما ، ويستَعجِلَهم دفعه بحجة استجْلابِ بعضِ ما تَحتاجُ إليه الصبَاغةُ من ألوانٍ وغيرِ ألوانٍ ، ثم يأْخُذَ النقُودَ ، ويصرفُها على مأكَلِه ومشربِه من غير أَنْ يصبغ لهم ملابِسَهم ، ويزيد فيبيعُ هذه الملابسَ ، ويصرفُ ثمَنَها كذلك على نفْسِه .

فإذا ما أَتَى صاحبُ الملابِس لأَخْذِ ملابسه ، ابتَسم له ابتسامةً صفراءَ هادئةً ساخِرةً ، وقال له : احضُرْ غدا تَجدْ ملابسَك مصبوغَةً على ما تَشتَهى ، بأزهى الألوانِ وأَثبَتِها .

ويحضُرُ الحريفُ غداً ، فيسمَعُ ما سمِعَه أمس مع ابتسامةٍ أَعرضَ من الابتسامةِ السابقة .

وهكذا يَتَوالى حضُورُ الحريف مطالبًا بمتاعه ، ويتوالى على سمْعهِ قولُ الصباغ ، ويتكررُ أمامَ عينَيْهِ منظرُ الابتسامِ والهدُوءِ ، ولا يستَشِفَّ ما يخفى وراء ذلك من سخرية لحسنِ نيتِه وسلامَةِ قلبه ، ثم يبدأُ يغيِّر فى نوعِ الاعتذارِ ؛ فهو يختَرعُ أسبابا مختلفَةً ويقدِّمُ كلَّ يومٍ عُذْرا ، ويطْلعُ بحيلةٍ ، ثم يَضِيقُ الحريف به ذَرْعا ، ويتملكُه الضِّيقُ والغضبُ . ثم ييأسُ فيقول له :

— هاتِ حاجَتِي ، لا أُريدُ صبْغها .

فيقول الصّباع : يا أخى ، أنا فى أشدّ الخجَل منك .

فيستفهمُه صاحب الحاجة عن سبب خَجَلِه مع أنّه يماطِلُه هذه المماطلةَ الكثيرة ، التى جعلته يزهق منه ، ويطلبُ حاجته .

فيقول له : يا صاحِبى ، لقد صبغْتُ لك حاجتَك على أحسن ما تُحب ، وعلقْتُها على حبلٍ لتجف ، فسُرِقَت ، وأنا أُمهلُك كل مرّةٍ إلى غدٍ ، فلا أستَطِيع أن أُصارحَك بالحقيقة ، فلما أحرجْتَنِى ، وطلبْتَ حاجتَك ، اضطُرِرْتُ إلى مصارَحتِك اضطرارا ، وأنا الآن أكادُ أذوبُ أمامَك خَجَلا

فإن كان صاحبُ الحاجةِ ممّنْ يُؤْثِرُ السلامة ، فوّضَ أمرهُ إلى الله وانصرَف .

وإن كان من غيرهم اشتَبَك معهُ فى سبابٍ وعراكٍ وخناق ، ثم ينتَهِى الأمر به دون أنْ ينالَ شيئا من حقُوقه ؛ لأنّ الأمر ينتَهِى بتدخل بعضِ النّاس لفَضِّ ذلك النِّزاعِ الذى ينْتَهِى غالباً بالصُّلح ، و بتنازُلِ صاحبِ الحقّ عن حقِّه ؛ وإذا لَمْ يتنازَلْ ورفع أمْره إلى الحاكِم ، فإن الصباغ له حِيَل وألاعِيبُ يستَطِيعُ بها أن يموّه على الحاكِم ومَنْ حوله فلا يحكمُ عليه

ولم يزلْ أبو قير سادِراً فى هذا الغَىّ والبغْىِ ، لا يأبَه لسوء ينالُ من سُمعتِه ، ولا تَعْيِيرِ يَحُط من كرامته ؛ حتى اشتهر أمرُه ، وشاع خَبرُه . وحَذَّر الناس بعضهم بعضاً من معاملته . فكفُّوا عنه ، وصار لا يقصِدُه

إلا من لا يعلَم حاله ، وظلّ هو لا يقلع عنْ تلك العادة الذميمة ولا يكُف عن سَلْب قاصدِيه نقودَهم وملابسَهم ، مُحتالا لذلك بشتّى الحِيلِ ، منتَهجاً له مختلف الأساليب .

وكان من حِيله أَنْ يذهب فيجلِسَ داخلَ حانوتِ جارِه الحلاق ، ويتخذَه كمِيناً له ، ويظَلُّ مترقباً لفَرِيسةٍ يسوقها حظُّها العاثِر إلى حانُوتِه ؛ فإذا حضَرَ إلى حانوته من أعطاه حاجَة ليصبغها له ، أَبْصرهُ من مَكْمنِه ، فيبقى مُخْتَفِياً داخل حانوت جارِه ، حتى يمل صاحبِ الحاجَةِ الانتظارَ وينْصرِف ؛ أما إذا جاء حريفٌ جديدٌ ، ومعه ما يريدُ صبغَه ؛ خفَّ إليه ، وسأله عن حاجته فيُعطيه ما جاء به لصبغه ، فيَسأله عن اللّونِ الذى يُريد ، ثم يطلبُ منه أَجرهُ ؛ ويكونُ أخيراً نَصيبُه كنَصيبِ الآخرين .

وهكذا استمرّ الحالُ بهذا الصباغِ المحتال ، حتى أتاه يوماً رجلٌ مشاكِسٌ قوىٌّ ، بنسيج يصبغه له ، وظلّ يتردّدُ بعد ذلك على الحانُوتِ ليستَردَّ نسيجَه فلا يجد الصباغَ به ، ولا يلمحُ له فيه ظِلا ، ويكون الصباغُ قد رآه ، فيبالِـغُ فى الاختِفاء والانْزِواء فى حانُوتِ جارِه .

ولما تـكرَّرَ من الرجُلِ الحضورُ إلى حانوتِ الصباغ ، وهو لا يَجدُه ؛ ذهبَ إلى القاضِى ، ورفع إليه أمرَه ؛ فبعثَ القاضِى برسولٍ توجه معه إلى حانوتِ الصباغ ، فعاينَه ، فوجده خالياً كما وصفهُ الرجلُ ، إلا مِنْ بعضِ آنيةٍ قديمةٍ ، وبضعة مواجير مكسّرة ، ولم يَجدْ شيئاً ذا قِيمة ، يعادِلُ ثمنُه نسيجَ الرجلِ .

فأوْصدَ رسـول القاضِي الحانوتَ ، وسمّرَه وختَمه بحضْرةِ شهودٍ أشهدَهم على ذلك .

وأخذ مِفتَاحهُ معه ، وقال للتُّجارِ المجاورِين للصَّباغ :

أبلغوا الصباغ إذا أتَى : أنِّى أنا رسـولُ القاضِى ، حضَرتُ إلى دكانِه ، وعايَنتُ ما به ، ثم أغلَقْتُه على الصُّورة التى ترَوْنَها ، وهـذا هُو المِفْتاح سآخُذه مَعِى ، وعلَيْـه أن يحضُرَ ليأْخذ مفتاحَ حانُوته ، على أنْ يأْتِى معه بحاجَة هذا الرَّجُل .

حدثَ هـذا كله تحت سَمْع أبِى قير وبَصَره ، ولم يَجْرُؤْ أنْ يَخْرُجَ من دُكان صاحِبه ليُوَاجِه خَصْمَه ورسولَ القاضِى .

فلما انصرفَ الرجلُ ورسولُ القاضى ، قال أبو صير لأَبى قير :

ماذَا دَهاكَ ؟ ، وماذا أصابَ عقْلَكَ ؟ فـكل من أتاكَ بشىء تصبغه ، أضعته عليه ، فما حيلتك مع هـذا الرجل الجبّارِ العنيد ؟ ! ، وأين ذهَبَتْ حاجتُه ؟ .

فقال أبو قير : يا جارِى ، أنا أصدقك الحديثَ ، ولا أكذبكَ ؛ إنه سُرِق مِنِّى ، وليس معى نقودٌ أشترى بَدله .

قال أبو صير : أفـكلُّ من يعطيكَ حاجةً تسرقُ منك ؟ ، ولمـاذا كنتَ أنتَ مقصـدَ اللّصُوص دُونَ سائرِ الناسِ ، إنى لا أُومِن بهذا القولِ ، ولا أُصدِّقك .

فقال أبو قير : أصدقك القول يا جارى ، فما سُرِق مِنِّى شىء .

فقال أبو صير : وما الذى تَفْعَلُه إذن بمتاع الناس ؟ .

قال : كل من أعطانى حاجةً أبيعُها وأصرفُ ثمنَها .

قال أبو صير ، مستنكراً ما قاله جاره : أيُحِلُّ لك الله أن تفعَل ذلك؟! أما تَسْتَحِي ؟ .

قال أبو قير ، وهو يُظهر التأسّفَ والحسْرَة : إنما لجأتُ إلى ذلك يا صاحبي ؛ لضِيق ذاتِ يدى ، وكَسادِ حالى ، وشِدّةِ فَقْرِى .

فقال له أبو صير : أمّا اعتذارُك عن شَنَاعَةِ ما تعمَلُ بكَسادِ الحالِ والفقْر ، فإنى أكثرُ منْكَ سُوءَ حال ، وقلةَ مال ، وعلى الرغْم من أنّى صادق ماهِرٌ فى صناعتى ، لا يَقصدنى الناسُ ، لما يظهرُ على دُكانى من البَسَاطةِ ، وقد كرهتُ مِهنَتِى وزهدْتُ فيها ؛ لأن الناسَ لا يقدرون جودةَ الصنْعة ، وإنما يغرُّهم المنظَر الجميل والبهرج الخَدَّاع ، ومع ذلك فإنى قانعٌ راضٍ بما يسوقه الله لى من رزقٍ ، قَلّ أو كَثُرَ ، وأَعيشُ به عيش الكفاف ، فَلا تَمْتَدّ يدى إلى غيره ، ولا أَطمعُ فى حاجةِ الناسِ .

قال أبو قير : يا أخى ، إذا كنتَ كرِهْتَ صناعتكَ ، وبرِمْتَ بها ، فأنا كذلك قد كرهتُ صناعتى ، وبرمْت بها ، فهل توافِقُنِى على أن نُهاجِر من هذا البلدِ و نتركه ونسيح فى بلاد الله الواسعة ، لعلنا نَجْنِى بعد الكرْبِ فَرجا ، ونجد بعْدَ العُسْر يسرا ! وإن سياحتَنا تُخَفِّفُ عن أنفُسِنا ما نَحْن فيه من ضِيق ، وتنَفّس عنا ما نشعُر به من كرب ، وصناعتنا فى يدِنا ، نأمَنُ بها شر العَوزِ والجُوع ، وهى نافعَةٌ رائجة فى أى بلد نَحِل به ؟.

فصمت أبو صير ، يتدبّرُ هذا القولَ ، ولكن أباقير لم يُمهله ، وأخذ يُزَيِّنُ له حُسْنَ الارْتحال ، وجمالَ السياحةِ فى البلادِ ، حتى مال أبوصير لهذا الرّأى ، وارتاح إلى العمل به .

وفرح أبوقير بموافقةِ أبى صير له على تنفيذِ فكرَتِه ، وأخذ يحدِّثُه عن فوائدِ السياحة فى البلادِ ، وما يَجنِيه الإنسانُ من وراء التنقلِ هنا وهناك ، فإنه يَرَى ناساً غيرَ الناس الذين نَشأَ بينهم ، ويجدُ لهم أخلاقاً وعاداتٍ غير الأخلاق والعادات التى أَلِفَهَا ، وإن التنقلَ فى البلادِ يُنْسِيه همَّه ، ويسرِّى عنه ، ما يساورُه من حُزنٍ وضَجرٍ ؛ وقد يجدُ فسحةً من العيش فيزيدُ رزقه ، ويكثُر ماله ، ويحسنُ حاله ؛ وقد يستفيدُ علماً جديداً ، وآداباً جديدة ؛ ثم هو بعد ذلك كلِّه ؛ يرى أصحاباً ، ويتخذ أصدقاءَ جدداً ، يستفيدُ منهم ، وينتفعُ بمعرفتهم .

ظلَّ أبوقير يُحدِّث صاحبه عن السياحةِ وفوائدِها حتى تأكَّدَ أنه اقتَنع بضرُورة السفَر ، وأنه لن يَثْنِيه عن عزمه أَحد .

وانصرَفَ كلٌّ منهما يهيِّئُ نفسه للسَّفَر ، ويُعِدّ ما يحتاجُ إليه ؛ ثم أَغلقَ أبوصير دكّانه ، وسلَّم مفتاحَه لصاحِبه بعد أن أَخذ منه عدّة صناعتِه ، وحزَمها مع متاعه ، الذى سيَحْمِلُه معه ؛ أما أبوقير ، فقد تركَ دكانه مُغْلقاً على حاله ، ومفتاحُه عند تابِع القاضى .

وحينما فَرغا من الاستِعداد ، وعزمَا على السَّفَر ، قال أبوقير لرَفيقِه :

يا جارى ، لقد صِرْنا أخوين ، يجرى على كلٍّ منّا ما يجرِى على أخيه من خَيْر وشر ، وغِنى وفقر ، وسَعد ونَحس ، ونعيم وبُؤس ؛ فينبَغِى أن نُقْسِم على أنَّ مَنْ يشتَغِل منّا ، ويكسب ؛ يطْعِم العاطِل ، وكل ما يتوفَّر من نقودٍ ندخرُه فى صندوق ، فإذا رجعنا ثانياً إلى الإسكندرية ، نَقْسِمُه بيننا بالحق ، ويأخُذُ كلٌّ منا نِصْفَه .

قال أبو صير : أَصبْتَ ، وإنِّى موافِق على ذلك .

وأقسَم كلٌّ منهما ، ثم قرأ الفاتحةَ ، على أن يفى بذلك العهد .

(٢)

ولما أصبحا ركبَا باخرةً من مِيناء الإسكندرية ، وأقلعتْ بهما وسارت تمخُر عبابَ الماء ؛ وكانت الباخرةُ تضُمّ عدداً كبيراً من الركاب والبَحّارة ؛ فقال أبو صير لرفيقِه : يا أخى ؛ ليس معنا غيرُ زادٍ قليلٍ ، لا يَكْفِينا مدةَ سفرِنا فى البَحْر ، وأنا لا أرى فى المرْكَب أحداً من الحلاَّقِين ، وسأعْرِض نَفْسى على الركَّاب ، وأُعرِّفهم أنِّى حلاّق ، فلعلّ أحداً منهم يدعُونى لأَحلِقَ له ، فينالنا منه شىء يساعدُنا على معاشِنا .

فقال أبو قير : نَعَم ، لا بَأس بذلك .

ثم تثاءب ، وتوسّد رأسه ، ونام .

ونَهضَ الحلاقُ ، فأخذ عُدّتَه ، ووضع على كتِفه قطعةً من نسيجٍ ، تقوم مقام الفُوطةِ لفقْره ، وشَقّ طريقَه بين الركَّاب ، يُعرِّفهم بنفْسِه ،

ويخبرهم أنّ صناعتَه الحِلاَقة ؛ فناداهُ أحدُهم ، وطلبَ منه أن يحلِقَ له ، فلمّا انتهى ، أعطاه شيئًا من النقودِ . فقال الحلاق :

— يا سَيّدى ، ليس بى حاجةٌ إلى النقودِ ، ولو أعطَيْتَنى رغيفًا ، لكان ذلك أنفَع لى فى هذا البَحْرِ الذى لا يُباعُ شىءٌ فيه ولا يُشْرَى .

فأعطاه الرجلُ رغيفًا ، وقِطْعَةَ جُبن ، وكوبَ ماء عذبٍ ، فحملَها أبو صير إلى صاحبِهِ ، وأيقظَه من نوْمِه ، وقال له : كلْ هذا الرغيفَ بالجبن ، واشربْ هذا الماءَ .

فأخذها منه ، وأكلَ الخبزَ والجبنَ ، وشربَ الماء .

وعادَ أبو صير ، فمَشَى بين الركّابِ ، يعرِضُ مِهنَتَه ، فصار الركّابُ يطلبونَه ، فيَحْلِقُ لهذا برغيفَيْن ، ولذاك بقطعةِ جُبنٍ ؛ وهكذا حتّى أمسى المساء ، وقد جمع قَدْراً كبيراً من مُختلف الأَطعِمة ، ومبلغًا لا بأسَ به من النقود .

وأخذ ينسِجُ على هذا المِنْوالِ كلَّ يوم : يحلِقُ للركّاب ، ويحمِلُ ما يُعطونه من أطعِمةٍ إلى صاحِبِه ، فيُوقِظه ، فيأكُل ، ثم يعودُ إلى النَّوْمِ فينام .

وحلَق أبو صير يوما لِرُبّانِ الباخرة ، فلما ناوَلَه أُجرتَه نقوداً ، طلب منه أن تكونَ أُجرته طعاما لِقلّةِ زادِه ، وما كان الزّادُ الذى أصبح يأتيه قليلاً ، ولكنه لجأ إلى ذلك لِشِدّةِ نهم أبى قير ، وإتيانه على كلّ ما يأتِيه به من طعامٍ مهما كثر .

فقال له الرُّبانُ : تعالَ كلَّ ليلةٍ ، وتناوَلْ عشاءَك معى .

قال الحلاق : يا سَيِّدى ، إنّ معِى رفيقاً

قال الرّبّانُ : لا بَأْس ، أَحضِرْه معَك ، وتعشّيا عنـدى كلّ ليلةٍ ، ولا تَحْمِلا هَمًّا مادُمتُما مسافِرَيْن معَنا .

فذهبَ أبو صير ، وأيقظَ صاحبَه ، وكَانَ معَهُ أُجرة ما عَمِلَ فى يوْمِه : مِنْ جُبنٍ ، وزيتون ، وبطـارخ ؛ فاستيقَظَ أبو قير ، ومدَّ يدَه إلى الطعام ليأكلَ وهو يقول :

— من أيْن لكَ كلّ هذا ؟ !

قال الحلاّق : مِن فَيْضِ الله ، ولـكنْ لا تأكُل منه الآن ، واتركْهُ لينفَعنا فى وقتٍ آخر ، فقد حلقْتُ للربانِ ، فطلبَ منِّى أن تُرافِقَنى كلّ ليلَةٍ ، ونَذْهَب إليه لنتَعَشَّى معه

فقال أبو قير ، وهو لا يكُفُّ يدَه عن الطَّعامِ : دَعْنِى آكل من هذا الطّعام ، فإنَّه ما زالَ فى رأسِى دُوارٌ من ركُوبِ البَحْر ، ولا أسْتَطِيع أن أبْرحَ مَكانِى .

فقال أبو صير : لا بَأس ، كلْ من هذا الطَّعام .

فأقبلَ الصباغ ، يَلْتَهِمُ الطعام التهاما ، ويأخذُ قطعةَ الُخبز ، ويكَوِّرُها مثل الـكرةِ ، ثم يُلْقِى بها فى فَمِه ، ولا يَكادُ يطْحنُها بأَسنانِه طَحنا سريعا حتى يَزدَرِدها ازدِرادا ، ثم يُتْبِعُها بغَيْرِها ، وهُو يحْمِلقُ بعيْنِه فيما بيْنَ يدَيْه حملقَةَ المسْعُور ، وينفُخُ نفخَ الثَّورِ الجائِع على العَليق .

وبينَا هو كذلك ، إذْ حضرَ أحدُ الملّاحين ، وقال لأبي صير :

— يا هذا ، إن الرُّبانَ يطلُبُك ورفيقَك ، لتتناوَلا عشاءَكُما عِندَه .

فقال أبو صير لِصاحبِه : أتقُوم مَعِي إليه ؟ .

قال : أنا لا أقدِرُ على المَشيِ ، ولكنِّي أقدِر على الأَكْل .

فذهَب الحلَّاقُ وحدَه ، فرأى الربانَ جالساً مع أصحابِه ، وأمامَهمْ مائدَةٌ شهيَّةٌ حافلةٌ ، عليها نحوُ عشرِين لَونا من ألوانِ الطّعام ، التي يجْرِي لها رِيقُ الشبْعَان ، فما بالُك بالجَوْعان ؟ ! .

وكان الربّانُ وأصحابُه ينْتظِرُون أبا صير وصاحبَه ، فلما رآهُ مُقبِلا وحدَه : سألَه : أيْنَ رفيقُك ؟ .

قال : يا سيِّدِي ، إنه مصابٌ بدُوارِ البَحْرِ .

قال الربانُ : لا بَأس عليْه ، سيزُولُ عنه الدُّوارُ قَرِيبا إن شاءَ الله . اجلِسْ أنتَ ، وتَمَشَّ معَنا .

وبعدَ أن فرغوا جميعا من الطعام ، أخذ الربانُ طبقاً من اللّحمِ المشْوِيِّ لم يُمَسّ ، ووضَع معهُ من كلِّ لونٍ شيْئا حتى صارَ ما أعدَّه يَكفِي عشرةَ أشخاصٍ من الأكولين النَّهمِين ، وأعطاه كلَّه لأبي صير ، وهُو يقولُ له : خُذْ هذا لِصاحِبك ، لكيْ يتمشّى به ، وطَمئِنْه على نَفْسِه ، فإنّ دُوارَ البحرِ لا يستَمِرّ طَوِيلا .

أخذَ أبو صير الطعامَ ، وذهبَ به إلى أبي قير ، فرآه لا يزَالُ يطْحنُ بأسنَانه ما لديْه من طعامٍ ، فقال له : أما قُلتُ لك : لا تأْكلْ هنَا ،

واصحَبْنِى إلى الرّبّان ، فإن خيرَهُ كثيرٌ ؛ أُنظُر هذا الذى أرسلَه إليكَ ، وهو بَعْضُ ما بقِيَ على مائِدَتِهِ .

فقال : ناوِلْنى إيّاه يا صَدِيقى .

فأعطاه الطبَقَ ، فأخذهُ بلَهْفَةٍ شديدةٍ ، وكأنه لَمْ يذقْ طعاما فى يَوْمِهِ ، وانقَضّ عليه انقِضاض الكَلْب النهم ، أو السبع الكاسِر .

فتركَه أبو صير وذهبَ إلى الربان وأصحابه ، وشربَ معهم القهْوة ، ثم عاد إليه فوجدَه قد أتَى على جَميع ما فى الطَّبَق ، وألقاهُ بجانِبِه فارغا ، فأخَذهُ وأعادَه إلى خَدم الربان .

وما زالَ هذا حالهم : يعمل أبو صير ، ويأكُل أبو قير ؛ حتى رَسا المركبُ على ميناء إحدى المدنِ بعد نحو عشرِين يوما من مغادرَتِهِم مدينةَ الإسكَندَرِية .

فغادَر أبُو صير وأبو قير المركب ، ودخلا المدينة ، واستأجرا لهما حجرةً فى خانٍ وخرج أبو صير ، فابْتاع ما يلزَمهُما من فَرْشٍ قليلٍ مُتواضع ، وفرشَ الحجرة ..

ثم عادَ فاشترى ما يَحتاجانِ إليه من لَحْمٍ وخُضر وغيرهما ، وأوْقد النار ، وطَها الطعام .

أما أبو قير فإنه غطّ فى نوم عَمِيقٍ من وقتِ دخولِه الحُجْرة . ولما هيّأ أبو صير الطّعام أيقظَه ودعاهُ إلى الطّعام ، فأقبلَ عليه كعادَته . ولما فرغ ونفدَ الطعام قال لرفيقِه : لا تؤاخِذْنى . فإن الدّوار ما زال يلازمنى

إلى الآن ، ثم أدار ظهره إليه ، ونام .

ومرت الأيامُ ، وفى كلِّ صباحٍ يحملُ أبو صير عُدتَه ، ويجُول فى المدينةِ ، فيعمل بما يسوقُه له الله من رزقٍ ، ويشترِى ما يحتاجُ إليه هو ورفيقُه من الطعام ، ويعودُ ، فيجدهُ نائِماً فيوقظُه ، فيقبلُ على ماأتَى بهِ من طعام ، ويلتهمُهُ ، ثم يعاودُه النومُ ، فينام .

وكلما قالَ له أبو صير : اجْلسْ معِى قليلا ، أو اخرجْ ، وتريَّضْ فى المدينة ، فإنها مدينةٌ جميلةٌ بديعةٌ — يرد عليه : إن دُوارَ البحر مازال يلازِمُنى .

فيتركُه أبو صير ، ولا تَسْمحُ له نفسُه أن يشتَدَّ عليه فى القوْل ، ويقْسُوَ عليه فى المعامَلةِ ؛ لأن ذلك يحزُنُه .

وذاتَ يوم مرِضَ أبو صير ، ولم يستَطِعْ الخروجَ للسَّعيِ وراءَ رِزْقِه أو شراء ما يلزمُه هو ورفيقه ، فكلف بواب الخان ابتياع ما يحتاجان إليه ، وظل على ذلك أربعةَ أيامٍ ، فاشتدَّ عليه المرضُ ، وغابَ عنْ وعْيه .

فاستيقَظَ أبو قير ، فلم يجدْ ما يأكُلُهُ ، ووجد أبا صير على حالِه من شدَّة المرضِ ، فنهض إليْه ، وفتَشَ ثِيابَه ، فوجدبها قليلاً من الدَّراهمِ ، فأخذَها وغادَر الغُرفةَ ، بعد أن أغْلقَ بابها على المريضِ ، وخرجَ من الخانِ ، دُونَ أن يلْحَظه بوابُ الخانِ ؛ ومضَى إلى السُّوقِ ، فابتاعَ ثياباً جديدَةً ارتداها ، ثم سار يتفرجُ برؤْية شوارعِ المدينةِ ودكاكِينِها ، فوجدها مدينةً جميلةً كبيرةً ، ولكنَّ سُكانَها لا يرتدون إلّا الملابسَ ذاتَ اللون

الأَبيضِ والأَزرقِ ، فتعجّبَ من ذلك أشدَّ العجَبِ ، وذهبَ إلى دكانِ أَحدِ الصباغِين ، وأعطاه ثوْبًا أبيضَ ، وقال له :

— أُرِيد صبغ هذا الثوبِ ، فبكم تَصبغُه ؟ .

قال الصباغ : بِعشرِين دِرْهما .

فقال أبو قير : كَيفَ ذلك ؟ إننا نصبُغه فى بلادِنا بدرهمَيْن اثنَيْن .

الصباغ : إننا هنا لا نَصبغه إلا بعشرينَ درهما ، لا تَنْقُص شيئا .

أبو قير : وأى لونٍ تصبغه ؟ .

الصباغ : أصبغه باللونِ الأَزْرق .

أبو قير : إنى أُريدُ أن تصبغه باللون الأَحْمَر .

الصباغ : لا أعرِف أن أصبغ باللّوْن الأحمر .

أبو قير : اصبغه لونًا أَصْفر .

الصبّاغ : لا أَعرف أن أصبغ باللون الأصفر !

ثم صار أبو قير يعدّدُ له الألوانَ ، لونًا بعد لَوْن ، والصباغ يقول له : لا أعرِف .

وأخيراً قال له : اسمَعْ يا هذا ، نحنُ فى هذه المدينةِ أربعُون صبّاغا ، لا يزيدُون واحداً ، ولا ينقُصون واحداً ، وإذا مات منّا واحدٌ ، نعلّم ولَده ، ولا نعرفُ جميعًا غير صباغة اللّونِ الأزْرق

أبو قير : اعلم أيضا أنّى صَبّاغ ، ولكنى أَعرف صباغةَ سائرِ الألوانِ ، وأُريدُ منك أن تستَخْدِمَنى عندَك ، وأنا أُعلّمُك صباغةَ جميعِ

الألوان ، لتفخَر بها على أفرادِ طائفتِك وأبناء مِهْنتِك .

الصباغ : نحن لا نَقْبلُ دخول غريبٍ في صناعَتِنا أبداً .

أبوقير : وإذا فتحتُ لي مصبغة وَحْدِي ؟

قال : لا يُمكِنُك ذلك أيضاً .

فتركه أبوقير ، وذهبَ إلى صبّاغ آخر ، فسمع منه نفسَ الكلامِ ، ولم يزلْ ينتقلُ من صبّاغ إلى صبّاغ ، يَعرضُ نفسَه عليهم ، حتى طاف بالأربعين صباغا ، فلم يقبَلْهُ أحدٌ منهم أجيراً عنده ؛ فاشتدَّ به الغيظُ ، وصمَّمَ أن يشكو أمرَه إلى مَلِكِ المدينةِ ، فسأل عن مقام المَلك ، وقصَد إليه واستأذَن في الدخولِ عليه ؛ فأذِنَ له بعد أنْ ذكر لحاجِبِ الملِك الغرَضَ الذي يرْمِي إليه مِن تلك المُقابلةِ .

فلمّا مَثَل بين يدَيهِ ، قال : يامِلكَ الزمانِ ، أنا غريبٌ ، وصنعَتِي الصباغة ، وقد حدَثَ لي مع الصباغين هنا . . . .

وقصّ على الملك ما حدَث .

فقال الملك : وأيّ الألوان تصبغ أنت ؟

قال : أنا أصبغُ جميع الألوان ، وأُخرج من كلّ لونٍ ألواناً ؛ فالأحمر مثلا ، أستطيعُ أن أُخرجَ منه ألواناً مختلفةً ؛ فهذا أحمر وردِيّ ، وهذا أحمر عِنّابي ، وهذا غير ذلك ؛ والأخضرُ كذلك ، أستطيع أن أُخرج منه ألوانا مختلفة : فهذا أخضر زرْعِي ، وذاك أخضر فُستُقِي ، وذلك أخضر زَيْتِيّ ، وهكذا .

وصار يعدِّدُ الألوان ، ويذكُر ما يُمكِن أن يشتَقّ منها ، ثم قال :

فأنتم ترَوْنَ يا ملك الزمان — بعد هذا — أنى أعرِفُ كلّ الألوان ، فى حين أن صبّاغى مدينتِكم لا يعرفون غير اللونِ الأزرقِ ، ومع ذلك فهُمْ لا يريدُون أن يقبَلونى عندهم معلِّمًا ولا أجيراً .

فقال الملك : لا بأس ، سأنشِئُ أنا لك مصبغةً ، وأُعطيك مالاً تستَعين به على عملِكَ ، وما عليْكَ منهم ، وكل من تعرَّضَ لك ، فسيكونُ جزاؤُه رادِعًا ، وعقابُه شديداً .

وفرِح الملك بهذا الصباغ الذى سيفتَحُ فى مدينتِه فتْحًا جَديداً .

وأمرَ له بحُلّةٍ ثمينةٍ ومملوكَيْنِ وجَواد ، وأعطاه ألفَ دينارٍ ، وقال له : اصرِفْ من هذا المال على نفسِك ، حتى يَتِمّ بناء مصبغتِكَ .

ثم أمرَ بإحضارِ البنّائين ، وقال لهم : امْضوا مع هذا الصبّاغ البارِع وطُوفوا به فى المدينةِ ليعاينَ أسواقَها وشوارعَها ، والمكان الذى يَسْتَحْسِنُه ويقع عليه اختِيارُه ؛ أقيموا له فيه مصبغةً كاملةً حسب رغبَتِه وإرشادِه ، ولا تخالفُوه فى كلّ ما يُشير عليكم به .

وأمرَ المَلِك بإعدادِ مسكَنٍ خاصّ لأبى قير ، فهُيِّئَ له المسْكنُ ، وفُرِشَت حجراتُه بفاخِرِ الفرش ، وزُيِّن بأفخم الأثاث ، وأُقِيم عليه الخدمُ والحشَمُ ، وأجرى عليه الرزق الواسع .

وفى اليوم الثانى ركِب أبو قير جوادَه ، وطاف بالمدينة كأنه أميرٌ عظيمٌ ، يتقدمُه المهندسون ويسير خلفَه البناءون ، وهو يتأمّل فيما يمرُّون

به من أماكنَ وبنايات ، حتى وقعَ اختياره على مكان منها .

فقال : هذا مكانٌ طَيبٌ ، أقيموا المصبغة هنا .

فطلب مرافقوه من صاحبهِ المسارعةَ إلى إخلائهِ ، وصحِبُوه إلى الملك ، فأعْطاهُ ثمن ما أخْلى ، وشرعَ العمالُ من فوْرهم في بِناء المصبغةِ على التصميمِ الذى أشار عليْهم به أبو قير، وحسب توجيهاتِه . ولم يَمضِ قليلٌ حتى تم بناء مصبغة عظيمةٍ فخمةٍ ، ليس لها شَبيه في تلك الممَلكةِ ، وذهبَ مهندسُ المصبغة إلى الملِكِ ، وأخبَره بانتهاء البناء وحضر أبو قير، وذكرَ ما يحتاجُ إلى شرائِه من أدواتِ الصباغة ومُمدّاتها ، فأعطاه الملك أربعةَ آلافِ دينار ، وقال له : خُذْ هذا واجعَلْهُ رأسَ مالك ، وأرِنى ثمرةَ مصبغتِك وسأرسِلُ إليك جملةً من الملابِس ، تصبغُها لى ، وتفتَتِح بها عملَك

فأخذ أبو قير المالَ ، وذهب إلى السوقِ ، وابتاع جميعَ ما تحتاجُ إليه المصبغةُ ، وأحضرَ من العُمّال ما يكفِي لتَشغيلها ، وهيّأ لكل منهم عمَلاً ، وأرشدَه إلى الطريقَةِ التى يتّبِعُها في أداء عملِه ، وجعل لنَفْسه الإشرافَ عليهم جميعا .

وقام العملُ على قدمٍ وساقٍ بالمصبغة ، وبعد وقتٍ قصيرٍ ، كانت الملابسُ التى أرسلَها إليه الملكُ ، وهى تَزيدُ على خمسمائةِ ثوبٍ من النسيجِ الأبيضِ ؛ قد نُشرتْ لتجِف فوق الحِبال ، زاهية بمختلف الألوان البديعة الجميلة ؛ لأن أبا قير — على الرغمِ من مَساوِيه — حاذقٌ بارعٌ في فنه .

ورأى الناسُ عجبًا ، فكل من مرَّ أمامَ المصبغةِ ، وقفَ يتأمّلُ ما يرَى : يرى ثيابا ملونَة بألوانٍ عجيبة غريبة ، مَارأَوْا مثلَها قط ، ترفرِف كالأعلامِ فى مَدْخل المصبغة ، يأخذ العينَ جمالُها ، ويبهر النفسَ تعدُّد ألوانها .

ازدَحم الناسُ حول المصبغةِ ، حتّى سَدُّوا الطريقَ إليها ، يتفرّجُون ويشاهِدُون ويسأَلُون ، ويستفهمُون ؛ فيخبرهم أَبو قير بما غُمّ عليهم ، ويشرَحُ لهم ما بَعُدَ عن فَهْمهم ويعرفُهم الأَلوانَ وأسماءها ، قائِلا لهم : هذا اللونُ اسمه أَحْمر ، وهذا اسمه أَخْضر ، أما هذا فأَصفر .

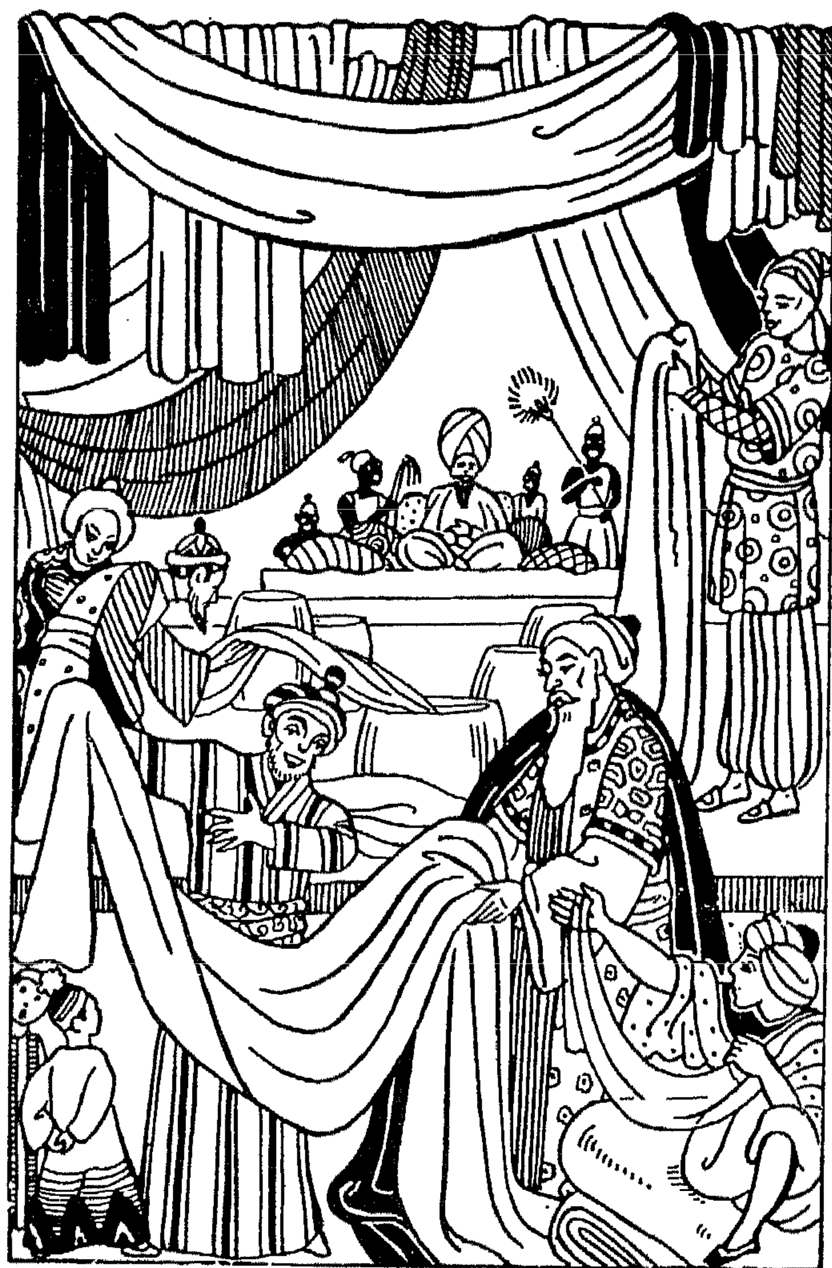
أخذ الناسُ يستمِعُون له مَشدُوهين متعجّبين .

وما انفَضّوا من حَوله بعد ذلك إلا ليهرَعُوا إلى منَازلهم ليُحضِروا له ملابسَهم ، أو إلى الأسواقِ لشراء ملابسَ جديدة ، على أن يعُودوا مسرِعين — فيدفَعوها إليه جميعا ، لصبْغها بِهذه الألوانِ الجميلة ، التى فعلَتْ فيهم فعْلَ السِّحر ، وكادت تذْهبُ بِعقُولهم .

وذهب أبو قير إلى الملِك ، وقدّم إليه ماصبَغه له من الثِّيابِ ، فسُرّ الملك من ألوانها ، وفرحَ فرحًا شديداً ، وأنعَم عليه بنعَمٍ جَزِيلة .

وتوافدَ الكُبَراء والأَعيانُ والجنودُ إلى مصبغة أبى قير ، كُلٌّ يريد صبغَ ما جلبَه معه من ثِيابٍ ، ثم يلقون إلى صاحِبها بالذهبِ والفضة بغيرِ حساب .

وذاعَ صيتُ المصبغة ، واشتَهرتْ ، وسميتْ مصبغة السُّلطان .



أما صباغو المدينةِ ، فقد ذهبَتْ ريحُهم ، وساءتْ حالُهم ، وبارَتْ صناعتُهم ، وانفضَّ الحرفاء من حولِهم ، وصارُوا يُمْسُون كما يُصْبِحون ، ويصبِحُون كما يُمْسُون ، لا يَقْصدُ إليهم أحد ، فيظلون جالسِين جميعَ يومهم على أبوابِ دكاكِينِهم ، يتثاءبُونَ من شدةِ الكَسَل الذي حطّ عليهم ؛ ولما طَالَ بهم الوقتُ وهم على تلك الحالِ ، لم يُطِيقُوا صَبْرا ؛ فأَتَوْا إلى أَبي قير يستغفِرُونه ، ويتُوبُون ليه ، ويرجونَه أن يضُمَّهم إلى مصبغتِه عُمّالا ، يأجرهم بما يَشاء ؛ ليحصِّلوا رزقَهم ، ويستطِيعوا أن يُنفِقُوا على أسرِهم ؛ فأَبَى ولم يقبل استغفاراً ولا توبةً ولا رجاء ، وذكّرَهُم بما فعلُوه به حينَ عرضَ عليهم نفسَهُ واحداً واحدا ، وكلهم رفض أن يَأجره ولو بكسرة خبز .

ودرَّت المصبغة على أَبي قير الأموالَ الكثيرةَ ، فعاشَ عيشَ المُتْرَفين واقتنَى الخدمَ والحشَم والجوارى ، وأصبَح من كِبارِ الأغْنِياء .

(٣)

ونعودُ لأبي صير ، لنرَى ما حصلَ له بعد أن ترَكَه أبو قير مغشِيًّا عليه في الحجرة وحيداً مريضاً ، وقد سلَبَهُ ما معه من نُقُود .

إنه ظَلَّ على حالتِه من الغيبُوبة وارتفاعِ الحرَارَةِ والهذَيان — ثلاثةَ أيام ، لا يقومُ أحدٌ على تمرِيضه ، أو مُواساتِه والتخْفيفِ عنه ، ولا يَذُوقُ شيئاً من طَعام أو شراب ولا يُحِسُّ أنه في الدنيا .

ثم انتبه بواب الخانِ لبابِ الحجرة المغلق ، وفطِنَ إلى أنه لم يُفتَحْ منذ أيامٍ ، وإلى عَدَم دخولِ أحـدِ الرجُلَيْن أو خروجِه ؛ فقال لنفسه : لعلّهما سافرا فى سِرّ ، ليتخلّصا من دَفْعِ أجرَةِ الغُرفة ، أو لعلّه قد حدثَ لهما سُوء ، فخرجا ولم يَعودا ، أو دخلا ولم يَخرُجا .

فاقتربَ من بابِ الغُرْفة يتسَمّع ، فسمِـع صوتًا خافتًا ضَعِيفا ، يَئِنُّ ويتوجَّعُ ، فطرَق الباب فلم يَسْمع إلا ذلك الصَّوت ، فاحتَال على فَتْحِه ، وظلَّ يُمالِـجُ القُفْل حتى فتَحَه ، ودخلَ ، فأَبْصَرَ أبا صير راقداً على الأَرضِ ، وقد غَدا ضَعيفا خائراً ، باهِت اللّون ، شاحِبا ؛ ولَولا صوتُه الضعيفُ الخافت ، ولولا حركَة عيْنَيْه — لظن أنه مات .

استعجب البوابُ حينما رأى أبا صير على هـذِه الحالِ ، فَدنا منْه ، وقال له : ما بالُك ؟ ، وأين رَفيقُك ؟! .

فردَّ بصوتٍ يكادُ لا يسمع : لا أدرى ، فما شعرتُ بنفْسِى إلا فى هذه اللحظة .

ثم أَشارَ إليه أن يأخذ مِنْ كيسِ نقودِه شيئًا ، ليَشْترىَ له به شَيئا يُسْعِفُه به من دَواء وطَعام ؛ فأخذ البوابُ الـكِيسَ ، فوجده فارغًا ، فقال له :

إن الـكِيسَ فارغٌ ، وليس به شَىءٌ من النُّقود .

فقال للبواب : أما رأيتَ رفِيقى ؟ .

قال : ما رأيته من ثلاثةِ أيّام ، وقد ظنَنْتُ أنـكما قد سافرْتُما معا ..

فأَدْرك أبو صير أَنَّ أَبا قير قد أخذ النُّقود وهرَب .

بكى أبو صير وانتحب ، وقال : إنما هو قد ترَكني ، وأخذَ نُقودِي وهرَب .

فقال البواب : لا تَبْكِ ، لا بأسَ عليك ، فسيَلْقى جزاءَ فِعلِه ، ولن يُفلِتَ من عقابِ الله فإنه خائنٌ غدّار ؛ لأنِّي كنتُ أُلاحظُ أنه ينام ليلاً ونهاراً ، ولا يَستيقِظُ من نَوْمِه ، إلا إذا عُدتَ إليه بالطَّعام ، فينْهضُ ، ولا ينْتَهي من الأَكْل حتى ينام ، وأنت تَسْعَى جميع يومِك لتحصّل رزقه ورزقك ؛ ثم يَسْلُبك بعد ذلك ما في جيبِك من مال ، ويتركك مريضاً مغشيًّا عليك ؛ هذه خيانةٌ لن يغفِرَها الله له ، فلا تحزَنْ ولا تيأَس من فَرَجِ الله .

وذهب البوابُ فصنَع له حِساء ، وأتاه بشيء منه ، فلما تناوله ، انتَعشَت نفسه وقويت روحُه ، ودَبّ فيه بعضُ النَّشاطِ .

وظل بوّابُ الخان يتعهّدُ أباصير ، ويرْعاه مدةَ شهريْن ، حتى شُفِي ، وأَبلّ من مرضه وغادَر فِراشَه ؛ فصار يشكُر بوابَ الخانِ على معرُوفِه ، وفضْلِه عليه ؛ ويقولُ له : سأُجازيك — إن قدّرني الله — على ما فعلت مَعي من الخير ، فقد أحسنْتَ إليّ على غيرِ معرفة ، وتعهّدتَنِي وأنا مريض ، في الوقت الذي تنكَّرَ لي فيه مَن كنتُ أُوثِره على نفسي وأَبرّه ، وأعطِف عليه .

فيقول البواب : الحمد لله على شِفائك وما بَغيْت إلا وَجه الله الكريم ،

أريد منك جزاء ولا شكوراً .

وخرج أبو صير إلى أسواق المدينة ، يسعى وراء الكسب ،
قدماه إلى المكان الذى فيه مصبغة أبى قير ، فرأى الناسَ متجمهرين
ن ، يتفرجون على الأثواب الملوّنة المعروضة بباب المصبغة ، فسأل
منهم :

ما هذا المكان ؟ ومالى أرى الناسَ مزدحمين حوله ؟ فأىّ شىء فيه ؟
فقال الرجلُ : إن هذه مصبغة السلطان ، وقد أنشأها لرجل غريب
أبا قير ، ونحن نتفرجُ على الألوانِ التى يصبغ بها الملابس ، فهى
لا عَهْدَ لنا بها ؛ لأن الصبّاغين فى مدينتنا لا يعرفون غير اللّونِ
ق .

ثم أخبره بما جرى بين أبى قير والصبّاغين ، وكيف شكاهم إلى
، وكيف أقامَ له الملك المصبغة .

ففرح أبو صير لما غدا عليه حالُ صاحبه أبى قير ، والتمس له العُذرَ
م سؤاله عنه ، لكثرةِ ما يشغله ، ويزحم وقتَه كله ، حتى غابَ
له أنّ له صاحبًا ، وأنه تركه مريضاً فى الخان ؛ ولكنه متى رآه ،
ح به ، ويُكرمه ، ويذكرُ ما فعلَه هو معه : من رفقٍ به ،
رام له فى أثناء بطالته ، أو يذكرُ على الأقلّ أن بينهُما عهداً ، وأن
ن يَفِيَ ببعضِ ذلك العهد .

فتقدم وشقّ طريقَه بين الجمع المزدحِم ، حتى وصل إلى المصبغة ،

فوجد أبا قير جالسًا على حَشِيةٍ عالية فوقَ مصطبة بباب المصبغة ، يرتدي حلةً ثمينة ، لا يلبَسُها إلا الأمراء ، وأمامَه أربعة عَبِيد ، وأربعةُ مماليك يلبسون أفخَر الملابس .

ورأى العمالَ داخل المصبغة يشتغلون ، ويستَشيرون ابا قير ، ويعملون بأمره وهو مضطجِع بين الوسائد لا يعمَلُ شيئا .

فتقدّم أبو صير منه ، وهو مُوقنٌ من أنه متى رآه فسيرحِّبُ به ، ويفرحُ لمقدمه .

ولكنْ ما وقعتْ عَيْن أبي قير على أبي صير ، حتى قال : يا خَبيث ، كم من مَرّةٍ قلتُ لك : لا تَقِفْ في بابِ هذه الخِزانة ؟ أتُريد سَرِقتي يا لِصّ ؟ أقبِضوا عليه يا عَبيد .

فاندفَع نحوه العبيدُ ، وقَبضوا عليه ، وحينئذٍ نهض إليه أبو قير من مجلسِه ، وبيده عصا غليظة ، وهو يقول للخدم :

أطرحوه أرضًا .

فطرحوه على الأرضِ ، فنزل عليه بعصاه ، يُشبِعُه ضربًا ، وهو يقول : يا خائن ، والله لئن رأيتُك واقفًا بعد هذا اليوم ببابِ المصبغة ، لأُرسِلنَّك إلى الملِك ، لِيَقْطعَ عُنقَك ؛ فانصرفَ أبو صير مُبتَئِسا حَزينًا باكيًا يجرّ أذيالَ الخِزْي والمهانة .

وسأل الحاضرون أبا قير ، عمّا أتاه الرجُل ، حتى أنزلَ به هذا العقابَ الشديد ، وضَرْبه ذلك الضرب المبرح ؟

فقال : إنه لِص ، يسرِق أمتعةَ الناسِ ، فكم مرّة سرق منى ثِيابا ، وكنت أتعرّفُ عليه ، ويقرّ أنه السارق ، ومع ذلك كنتُ أسامِحه ، لأنه رجلٌ فقير ، وأعطِى الناسَ ثمن أمتِعتِهم ، وأنهاهُ بلطفٍ فلا ينْتَهى ، وأقدّمُ له النّصح فلا ينتَصِح .

فأقرّه الجميع على ما فعل ، وسَبوا أباصير فى غيبَتِه ، وقالوا : إنه يَستأهِل ما حلّ به .

عاد أبو صير إلى الخانِ ، كاسفَ البالِ ، سَيِّئ الحال ، وجلسَ فى حجرته حَزينا ، يفكّرُ فيما فعلَه به أبو قير ، فلم يَستطِع أنْ يجد سببا يدفع برفيقِه الذى رَعاه وخدَمه أن يفعلَ به ما فعل .

وبعد أن أعياهُ جهد الفكر ، نهضَ وخرجَ يبحثُ عن حمّام عام ، يستحِمّ به ، ويغسلُ جسمَه ، ويزيل عنه ما عَلِق به من الأوساخ ، ولا سيما أنه مضَى عليه وقتٌ طويل لم يستحمّ ؛ فقابل رجُلاً من أهلِ المدينة ، وسأله عن الطّريقِ الموصّل إلى الحمام

فقال الرجُل : وما يكونُ الحمام ؟

فدهش أبو صير لجهلِه ، وقال له : هو موضِع يغتَسِل فيه الناسُ ، ويزيلون ما على أجسامِهم من الأوساخ ، وهو يُعدّ من طيبات الدّنيا .

فقال الرجل : عليكَ بالبَحْر يا هذا ، فإنّ حمّامَنا الذى نغتَسِلُ فيه ، ونُنظِّف أجسامَنا بمائه — هو البحر ، وهو من أطيَبِ طيّباتِ الدنيا .

فقال أبو صير : إنما قصدتُ الحمام ، وما قصدتُ البحر .

قال الرجل : نحن لا نعرفُ الحمام ، ولا كيف يكُون ، والذى لا يَغتسل فى منزله يغتَسل فى البحر ، والملِكُ نفسه يَفعل ذلك .

فتعجّب أبو صير من هذا الأمر ، وأدْرَك أنه ليس بالمدينة من يعرِف الحمام ، فحَدّثته نفسُه بالذهابِ إلى الملِك ، ويشرح له ميزة الحمام ، ويطلب منه أن يُعينَه على إقامة حمام بمدينتِه .

وبعد أن اختمرت فى نفسه الفكْرَة ، لم يتَوانَ عن تنفيذها ، فقصَدَ من ساعتِه إلى قصرِ الملك ، وطلبَ أن يُؤْذَن له بالمثُول بين يديه .

فلما أُذِن له بمقابلة الملك ، قال له : يا مِلِك الزمان ، أنا رجلٌ غريب ، وصِناعتى حَمّامى ، فلما حضرت إلى مدينتِكم ، وأردْتُ الذهاب إلى الحمام ، لم أجِدْ بها حمّامًا واحداً ، فتعجبْتُ من أن تكُون مدينةٌ جميلة مثل هذه المدينة — خاليةً من حمّام .

فقال الملك مستفهِمًا : وما الحمام ؟

فأسْهبَ أبو صير فى وصْفِ الحمام ، ومنافعِه ، وميزاتِه ، وضرورةِ إنشائه ؛ فاقتَنَعَ الملك بكلامِه ، وأُعجِبَ كثيراً بما صوّره له فى وصفه .

وقال له : مرحَبًا بمقدمك ، ولقد وافقتُك على إنشاء هذا الحمام ، فافعل ما ترى ، وسأقُوم بدفعِ جميعِ ما تطلُبُ من نفقات لإقامتِه ، وأمَر له بحُلّةٍ ثمينة ، وجواد وعبدَيْن ، وأربع جوار ، ومملوكين ؛ وهيّأ له دارًا مفروشة ، وأكرمَه أكثر مما أكرم الصبّاغ

وكذلك أمر البنائين بمصاحبته ، والطواف معه بالمدينة ، وفى المكان الذى يقع عليه اختيارُه ، يشرعُون فورا فى إقامةِ ما يَطْلبه منهم .

وأقيم الحمام فى المكان الذى وقَع عليه اختيارُ أَبى صير ، وشُيدتْ به الأحواض والفساق والمغاطس حسب إرشادِه ، ونُصبت الحنفيات فى سائرِ أرجائهِ ، ثم نقش بأدق النقوش وأجملها ، فجاء تُحفةً رائعةً ، تسُرُّ العَيْن ، وتبهج النفس .

وأخبر أبو صير الملِكَ بتمام تَشييدِ الحمام ، وبأنه لَمْ يعد يمنع من تشغيلِه إلا فَرشه بِما يكْفُل الراحةَ للمستَحمين ، فأعطاه الملك عَشْرة آلاف دينار .

فأخذها أبو صير ، وابتَاع ما يلزَمُ الحمام من طَنافس وحشَايا ووسائد وأغطية ، كما ابتاع كميةً وافرة من الفُوط ، نثرها على المشاجِبِ فى أرجاء الحمام .

وبَعدَ ذلك أَوْقد الوقود فى أَتون النار ، وأَجْرى الماء ، فجرى فى مجاريه حارا وباردا ، وازدَحم الناسُ حول الحمام يشاهِدُون ويتفرجُون ويتعجّبُون ، كما فعلوا حين تشييد مصبغة أبى قير من قبل .

واستفهمَ الناسُ عن كُنه الحمام وماهيّتِه ، فشرح لهم صاحبُه ما غمُ عنهم ، وخَفِى عليهم ، ودَعَاهم إلى الدخُول فيه ، والاستِمْتَاع بنعيمِه ، ومباهجِه ، فدخلوا زرافاتٍ زرافات ، يتلو بعضها بعضا .

وكان أبو صير قد أَحضرَ غلمانا لخدمةِ العمَلاء ، وعلّمهم فن الحمامىّ فى التكبيس والتدليك ، فأَتقنوا مهنَتهم الجديدة أَتَمّ إتقانٍ ؛ فإذا ما دَخل

العَمِيل الراغبُ فى الاستحمام ساعدَه الغلام على خلع ملابِسه ، وصَحِبه إلى أحواضِ الماء ، وقامَ بغسلِه وأرشده إلى مغطس الماء الساخِن ، وعن المدة التى يسمح له بالمكث فيه ، وهكذا حتى يَنتَهِى به أخيراً إلى الفِراش الوَثير المَدّ فوق المصاطِب الفَسِيحة ؛ ليأْخذ المستَحِم قسطاً من الراحة والاستِجْمام عقب الحمام الحار ، ثم يعقب ذلك بتقْدِيم الشرابِ الساخن .

فإذا ما خَرَج المستَحِم بعد ذلك ، كأن كأنّه خارجٌ حقا من جَنات النَّعيم ، قد انتعش جِسمُه ، وخَفّت روحه ، وصفَت نفْسُه ، وشعر بكامِل الراحةِ والسُّرور .

وانتَشر خبرُ الحمام فى أرجاء المدينة ، فقصدَهُ الناس من كلّ حدَب وصَوْب ، وظلوا يستحمونَ فيه ، وينْعَمُون بمباهِجِه مجانًا من غَير أن يدْفَعُوا أُجرة لاستِجْمامهم مدة ثلاثة أيام .

وفى اليوم الرابع كان قد تم تجهيزُ الحمام ، وإعدادُه ، وفرشُه بفاخر لأثاث ، وتجميله بأجمل الرياش — ذهب أبُوصير إلى الملك ودَعاه لمشاهَدَتِه ، فذهب الملكُ إليه ، يَحُفُّ به رجالُ حاشِيَتِه ، وتفرجوا به ، فأعجبَهم أيّما إعجاب .

وقابله أبُوصير وغلمانُه ، وأسرعوا جميعاً إلى خِدْمته ، وخدمةِ من معه من رجال دولته .

وصاحبَ أبو صير الملِكَ إلى مقصورة فخمةٍ ، وقام هو على غَسله وتدْلِيكه وتكبِيسه ، وكان قد أعدّ له ماء ممزوجا بالعِطْر وماء الورد ، وأخذ

يَصبه عليه صبًّا ، ثم صاحبَه إلى المغطس ، وساعدَه على النزول إليه ، وبعد فَترةٍ خرج الملك وقد انْبَسَط ، ورطب جسمه ، وشعَر بنشاطٍ فى بدنه ، وانشراحٍ فى قلبه ، وانتعاشٍ فى نفسه ، وكأنما الدنيا قد انْفَسَحَتْ له كلّها فليْسَ على ظهرِ الأَرض أسعد منه ، وبعد أن ارتَدَى ملابسَه ، اضطجع فوق الوَسائِد ، يتلذَّذُ بالراحةِ ، ويستَمتِعُ بالسُّرور ، وتَطِيب نفسُه بالهدوء ، وبعد أن أحسَّ أنه نالَ من ذلكَ قسطاً كبيرا نهضَ مبتهِجا ، واستَدعى الحَمَّامىَّ إليه فقال له : أهذا هو الحمّامُ يا أبا صير ؟

قال أبو صير : نعم يا مَوْلاى ، هذا هو الحمّام .

قال الملك : حقا ، إنّ مدينتِي لم تَكُنْ مدينةً كاملة البَهْجَةِ والأُبّهة إلا بعد هذا الحمام : فإنها بإنشائهِ استَكْمَلت شيئاً لا يُمْكِن أن تَستَغْنِي عنه مدينةٌ يحب ملكُها أن يوفر لشعبه فيها أسْبابَ النَّعِيم .

كَم تأخُذُ أجرةً على الفردِ الواحد يا أبا صير ؟ .

قال أبو صير : الذى تأمُرُ به آخُذُه يا مَلِك الزمان .

قال : سآمر لك بألفِ دينار . وكل من يَغتَسِلُ عندك تتقاضَى منه ألف دينار .

فقال أبو صير : عفوًا يا ملِك الزمان ، إن الناسَ ليسوا سَواء ، فمنهم الغَنِي ، ومنهم الفَقِير ، والفقير لا يقدِر على دَفْع ألفِ دينار ؛ ولو أخذت ألف دينار من كل من يُرِيدُ أن يستحم عِنْدِى لكسَدَت حال الحمام وانصرف الناس عَنْه ، ولم يَقصِدْه أحد .

قال الملك : وماذا تُرِيدُ أن تَفعَل ؟ .

قال : أجعل الأجرةَ مرتبِطَة بالمقدرة ، فكلٌ على حسَب حالِه ، ومن يقدِرْ على شيء يدفعْه ، والذى تَسْمَحُ به نفسه يُعطِيه ، فلا نأخذُ من إنسان إلا ما يُطيقه . فإذا فَعلنا ذلك يقبل الناسُ على الحمَّام ، ويَصِيرُ له شأنٌ عظيم . أما الألف الدينار فهى عَطِيَّةُ المِلك ، ولا يَقدِرُ عليها أحد .

فأمَّن الحاضرون على كلام أبى صِير ، وقالوا : إنه الحقُّ يا ملِك الزمان . أعجب الملِك من قوله ، ولكنَّه قال لِرِجاله : إنما هُو رَجُل غَريبٌ فقِير ، وإكرامُه واجبٌ علينا ، وقد فعل لنا شيئًا عظيما : فأنشأ هذا الحمام الذى ما رَأَيْنا ولا رَأَتْ مدينَتُنا مِثْلَه .

فقال كِبارُ الحاضِرين : نعم إن إكرامَه واجبٌ ، ولكنَّه مِنْ مَالِك الزمان جَميلٌ ، وليس واجباً على الفَقِير لأنه غَير مُستطيع ، بَلْ إن إكرامَ الفَقِيرِ نفسه برٌّ وفَضْلٌ من ملك الزمان ، ومن مظاهره العَمَل على تَخفِيض أُجرة الحَمَّام .

فقال الملك : صدقتم ، ولكنى أطلب منكم أنتم معاشر أكابر الدولة أن يعطيه كل منكم فى هذه المرة مائة دينارٍ ومملوكا وعَبْداً وجارية .

قالوا : سَمعاً وطاعة ، سنُعطِيه جميعاً ذلك ، على أَنْ يعطيه كل من دَخَل بعد ذلك اليوم ما تَجُود به نَفْسُه .

قال الملك : لا بأس .

فأعطاه جَميع الحاضرين ما أمَرَ بهِ الملك ، كما أعطاه الملك عَشرة آلافِ

دِينار وعشر مَمَاليك ، وأعطاهُ مثلَها من الجوارى والعبيد .

فتقدم أَبو صير ، وقبل الأرضَ بين يدَى الملك ، وقال : أَيّها الملِك السعيدُ ، صاحِبَ الرأى الرّشيد ، والفكرِ السديد ؛ أىُّ مكان يَسَعُنى بهؤلاءِ المماليك والجوارى والعبيد ؟ .

قال الملك لكبير مهندسيه : ابن لَه قصراً فَخْماً ، وأَثِّثْهُ بأجمل الأَثاث وأفْخَرِ الرياش ، ليُقِيم فيه هو وعبيدُه ومماليكه وجواريه ؛ وعَجِّل ولا تُبْطِئْ ؛ فقال كبيرُ المهندسين : سَمعاً وطاعة يامَلِك الزمان .

ثم تَوَجَّه الملك إلى أَبى صير وقال له : اعلَمْ أَنى ما أَمرتُ بدفع هذا المال إليك إلا ليكونَ لك ثَروة عظيمة ؛ لأنك غَريب ، وربّما كان لك أَهلٌ وأَوْلاد ، تَشْتَاق إلى رُؤْيتِهم ، وتَرْغَبُ فى السفرِ إليهم ، فتكُون بذلك قد وهَبْنا لك شيْئاً تَستعين به إذَا ما عُدت إلى وطنك .

ولعلك تستعجِلُ فترسِل إليهم من ذلك المالِ الذى وهبْنَاه لك ما يَقدِرون به على مُواجهَةِ تكاليفِ الحياة ، ويدفعون به عن أَنْفُسهم قسوةَ العَوَزِ والحاجة ؛ ثُم تَسْتَطيع فى الوقْتِ نفسِه أن يَكون تحتَ يدِك مالٌ تنفِقُ منه على نَفْسِك وخَدَمك ، وعلى حَمّامك وقَصْرِك .

فقال أَبو صير : يامِلكَ الزمان ، إنّ هؤلاء المماليك والجوَارِى والعَبيد إنما يَصلُحون للملُوك ، وإنّى إن استَطعْتُ أَن أُنفِق عليهم كانَ ذَلِك مما أَغْدَقَ علىَّ مولاى ، فإنّ دَخْلى بعد ذلك مَهْمَا كَثر لا يكْفى للإِنْفاقِ عليهم فى مأْكلِهم ومَشْرَبِهم وملبَسِهِمْ ، ولو كُنْتَ — أعزكَ الله — أَمرتَ لى

بمالٍ أكثر ، لكان ذلك خيْرًا لى .

فضحِكَ الملكِ ، وقال : والله إنّكَ لَعلى حَقّ ، فقـدْ صارُوا جيْشاً جرّاراً ، وأنْت لا طاقةَ لك بالإنفاق عليهم ، ولكنّى سآخُذهم مِنْك على أن أُعْطِيك عن كُلِّ واحدٍ منهم مائةَ دينارٍ ، فَهَل يُرْضِيكَ هَذا ؟

قال أبو صير : نعم ، إنّه يُرْضِيني ياسيدى .

فأَمر الملك خازنَ بيتِ المـال أن يَنْقد أبا صير عن كلّ عبدٍ ومملوكٍ وجاريةٍ مائةَ دينار ، فنَقَده المالَ الذى أمر الملِك به .

ثم قال الملك لرجال دولتهِ : كلّ من له جارية أو عَبـد أو مملوك ، فليستَردّه هدية منى .

فامتثَلوا ، وأخَذ كل منهم عبدَه ومملوكَه وجاريتَه .

وفى صباح اليوم الثانى ، أرسل أبو صير مُناديا ينادِى فى المدينة :

« كل من دخل الحمـام ، واغتسل — لا يَدفعُ إلا ما تجودُ به نفسُه ، ومن كان فقيراً مُعسِراً فإنه يَسْتحِم بلا أجر » .

فأقْبل الناسُ على الحمام أفوَاجاً ، يغْتَسِلون ويستَحِمون ، والقادرُون منهم يضَـعُون فى صُندوقٍ أعدّه أبو صير للنقُود ما تجُود به نفُوسهم ؛ فما أمسى المساء حتى امْتلأ الصندوق بالنقُود ؛ لأنّ الناسَ أقْبلوا على الحمّامُ لشِدة استِغْرابهم ، ولأنهُ جديدٌ عليهم ، وكل جديد يسمعُ به الإنسانَ يحبُّ أن يراه ، وخاصة أنهم عَلِموا أن ملـكَهم ذهَبَ إلى الحمّام ؛ وقدّرِ صاحبه ، وفرحَ به ، وأجزلَ له العَطاء ؛ فكُنت تَراهم يذهَبونَ إليه جماعات

جماعات ، وعند خُروجهم يضعون فى الصُّندوقِ ما يستطيعُون ، وكان أبو صير يلقاهم بالتِّرحابِ ، ويُوَدّعهم بالبِشر والسُّرور .

ولما كَثُر حديثُ الرجالِ والنساء عن الحمام ، أَبْدت الملكة رَغْبتَها فى رُؤْيته ، والاستِحمام فيه .

فلما بَلغَ أبا صير ذلك قَسمَ الوقْتَ بين الرجالِ والنساء ، فجعلَ الاستحمام من الصباح إلى الظهر للرجالِ ، ومن الظهر إلى الغرُوب للنساء ، وعلَّمَ بعضَ الجوارى خِدمةَ المُستَحِمات فصِرنَ وصيفَاتٍ ماهراتٍ .

عرفَ الملكُ ما فعله أبو صير ؛ فسرَّهُ حسنُ تَصرُّفهِ ، وجَميلُ تدبيرهِ ، وأَذِنَ للملكة أن تَذهبَ إلى الحمام فى الوقتِ المعدِّ للنِّسَاء ؛ فلما عرفَ ذلك أَبُو صير ؛ أخْلَى الحمام من الرجالِ جميعا ، حتى مِنْ مماليكه وعبيدِه وخدمه ، ولم يَبْق فيه إلا المواشط اللائِى استعددْن لاستِقبال الملكة ووصيفاتها

ولما حضَرت الملكة سُرت كَثيرا من الحمام ونِظَامه ، ووهبتْ مواشطه كثيراً من الهبات .

وخَرجتْ وكلُّها إعجابٌ بالحمام ، فأثنَت على صَاحِبه ، وعلى القائِمات عليه ، وأشادَت بِنعَامِهِ ؛ وشاعَ بين الناسِ أن الملكة مسرورةٌ كل السرور مما رأَتْ وشاهدَتْ ، فأحبّت النساء أن يذهبْنَ إلى الحمام كما ذَهبت الملكة ، ووفَدْنَ عليه جماعات جماعات كما فعلَ الرجال ، وزَحَمْن ردَهات الحمام وأبْهاءه وحجراته ، وضاقت عَنْهن مغاطسُه ، ولكن حُسنَ النظَام جعَلهُنَّ



يستَخمِمْنَ مُستريحاتٍ هانئات ناعمات .

وأَصبح أبو صير من كِبار الأغنياء ، وانتَثَر الذهبُ بينَ يديه فائضا عن حاجته ، وصار ذا مكانة مرموقةٍ بين وُجهاء المدينةِ وكُبرائها ؛ وجميعُ أفْراد حاشيةِ الملك أَصْبَحُوا من خاصةِ أصحابه .

واتفَقَ يوما أنْ قصدَ بحارُ الملكِ إلى الحمام للاستِحمام ، نخدمهُ أبو صير نفسُه تكريما له ، فلما همّ بالانْصِراف أرادَ أن يَدْفَع إلى أبي صير مَبْلغا من المالِ ، فرفَض أبو صير وأصرّ على ألا يأخُذ منه شيئا .

فخرجَ البحارُ وهو فى حَيْرةٍ ؛ لِأَنّ أبا صير حَمَّله جَميلا عدَّهُ كَبيرا ، وفكّرَ فِى أن يَرُدّ له جميلَه وهدَاهُ تفكيرُه إلى أنْ يُعِدّ هديةً يهبها إلى أبى صير ، يرد بها صنيعه ؛ أو يقدّم له خِدْمَةً نظيرَ لطفه وإكرامه وبرِّه .

(٤)

تناثَرت حول مَسامِع أَبى قير أَخبارُ الحمام الذى أَنشأه الملِك ، ومقدارُ تهافتِ الناس عليه ، وإعجابهم به ، ومَدْحهم له ؛ فذكّرهُ ذلك بحمامات الإسكندرية ، وعقد عزمَهُ على الذهاب للاستِحمام فيه ، فلبسَ أفخر اللباس وركِبَ جوادا مُطَهَّما ، وأخذ معه أربعةَ مماليك ، وأربعة عبيدٍ يسيرُون من بين يدَيه ومن خلْفِه .

فلما وَصلَ إلى الحمام طالعتْهُ رائحةُ العودِ والنّد ، ورأى الفِناء يزخر بجموع الناس : فهؤلاء داخِلون وهؤلاء خارِجون ، وأولئك وَاقِفون

ينْتَظِرون دَوْرَهم ، فنفذَ إلى الداخلِ ، فشاهَدَ المصاطِب وقد امتلأتْ بأكابرِ رجالِ الدولةِ ، يَحْتَسُون الأشربةَ الساخنة ، وهُم يتحدثُون ويتفكَّهُون ؛ فسرَّت نفسه من هذه المشاهد ، وأعجبتْهُ مظاهر العظَمة والأبهة البادية على الحمام ، كما أعجبَه جمالُ التنسِيق ، وحسن النّظام ؛ فَخُيِّل إليه أَنه يرى أفخَم حمام فى الإسكَندرية .

وفيما هُو يجولُ بنظَره فى أَرجاءِ المكانِ ، وقع نظَرهُ على أَبى صير الذى كان جَالِسا بجوارِ الصندُوق المعدِّ للنُّقُود ، وقد ارْتَدى حلةً توحى إلَى من يشاهدها بِعظَمِ ثَراء صاحِبها ؛ وما لَمحهُ أبُو صير حتى خَفَّ إليه مرحِّبا ، وقد فَرِحَ به فبادَرهُ أبُو قير معاتباً :

أهذا شرطُ أولادِ الحَلال ؟ !

أأَفتَحُ لى مصبغةً وأصيرُ غنِيّا ، وقد تعرفْتُ بالملِك ، وسائِر الكُبراء ، وسعَتْ إلىَّ السعادةُ من كلِّ ناحية ؛ وأنْتَ لا تأْتِى إلىَّ ، ولا تَسأَلُ عنِّى ، ألا تقُولُ أيْنَ رفيِق ؟ !

أنا أفتّشُ عنْك ، وأبعثُ عبيدِى ومماليِكى للبحْثِ عنك دون جَدْوَى ودون أنْ نعثر لكَ على أثرٍ ، أو يُرْشِدنا أحدٌ إلى مكانك .

لقد عَجزْتُ ويَئِستُ ، ورجَّحتُ أنك قد رجَعتَ إلى الإسكَندرية وطَننا .

فقال أبو صير . وقد تملكَه العجبُ من كلامِه : أما جئتُ إليكَ ، فاتهمْتَنى بأنى لِصّ ، وضربتَنى ، وفضَحْتَنى بين الناس ؟ !

فأظهَر أبو قير الأسفَ والكَدَر ، وقال : ما هذا الكلام ؟أأنتَ الذى ضرَبتُك ؟!

فقال أبو صير : نَعم ، هوَ أنا .

فأقسمَ له أبو قير بالأيمان المغلَّظَة أنه ما عرَفَه ، ثم قال : إنما كان هناك رجل يُشبِهُك شكلاً ولوْنًا وطولا وملبسا ؛ يأتى كلَّ يوم ، ويَسْرِق ملابسَ العملاء ؛ فظنَنْتُ أنكَ هو ؛ لأنى بمجرّد وُقوع نظرى عليك لم أفكِّر إلا فى الانتِقام من هذا اللص الذى يُزْعِجُنى ويُزْعِجُ حرفائى بسرقةِ ملابسِهم ، وإحراجى معهم ؛ ويجوز ياأخى أنّى لو كنتُ تمهّلْتُ قليلاً وأنعمتُ النظر فى وجهك وملامِحك — لعرفْتُك .

وأخذ يضرِبُ كفًّا على كَفّ ، ويقول :

لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله العلىّ العظيم ، قد أسَأْنا إليكَ يا أَخى والله ولكن ؛ ياليتَكَ عرَّفْتَنى نفسك ، وقلت لى : « أنا فُلان » ؛ فالعيبُ عندكَ لأنك لم تُخْبِرنى ، فقد كنتُ أنا مشغولاً عن التأمُّل فيك من كثْرةِ الأعمال .

فقال أبوصير ؛ ولم تفارقْ شفتَيْه ابتسامةُ اللقاء : سامَحك الله يارَفيق وغَفَرَ اللهُ لكَ ياصديقى ؛ وما كان هذا إلا مُقدّرًا لى . ادْخل ، واخلَع ثيابك ، واسْتَحِمّ ياأخى .

لم يُسارع أبو قير إلى الحمام ، ولكنّه ظلَّ يحدِّث أبا صير ، ويسأله :

ومن أينَ لك كلّ هذه السعادة يا رفيق ؟!

قال أبو صير : الذى فتح عليكَ فتح علىّ ، فقد قصدْتُ الملك، وخاطبْتُه فى شأنِ إقامة الحمام ، فأمَرلى ببنائه .

فقال أبو قير : إن لى صلةً قويةً جدًّا بالملك ، وسأتحدثُ إليه فى شأنِك ، وأوصيه بك خيراً ، كى يزيد فى إكرامك ، ويُبالغَ فى العطف عليْكَ .

فقال أبو صير : إنّ الله معِى ، وقد حبَانى الملك بعطفٍ كبيرٍ ، هوَ ورجالُ دولته ، وأكرمونى ، وبالغوا فى إكرامى ، ومنحونى هباتٍ سَخِيّة .

ثم قصَّ عليه جميعَ أخبارِه ، وهو يستمِعُ إليه فى اهتمامٍ ؛ ثم قال له : والآن هيَّا إلى الحمام .

فدخل أبو قير ، وخلَع عنه الملابس ، وأَوْصى أبو صير به رجالَه ، فاعتَنَوْا به عناية خاصة ، وبقِىَ هو قريباً منه ، لا يَنِى عن إظهارِ فرحِه به ، وإكرامِه له ؛ وأخيراً صحبَه إلى الفِراش ، وقدّمَ له الشرابَ ، ثم أعقبَهُ بطعام لذيذ شهىّ ، ولازمه جميع يومه ، لا يكُفّ عن الترحيب به ترحيباً جعل جميعَ الذين شاهدوه يعجبون من حسن معامَلتِه له ومبالَغتِه فى حفاوته به .

وقال أبو قير لأبى صير : واللهِ يا رفيقى إن هذا الحمام عظيمٌ جدا ، وهو لا يقلّ عن أفخمِ حمام فى الإسكندرية ، ولكن ينقصُك شىء .

قال أبو صير : وما هوَ ؟

قال : هو مُرَكَّبُ الزرنيخ والجير الذى يساعدُ على نظافةِ الجسمِ ،

فاصنعه وأعدّه ، حتى إذا ما حضرَ الملكُ فقدّمْه له ، وعرِّفه كيف يستعمِلُه ، فإنه إذا استعملَه ارتاح له ، وزادتْ محبته لك .

فقال أبو صير : صدقتَ ، سأصنع هذا الدواء إن شاء الله ، وأقدمه إلى الملك حينما يُشرّفُ الحمام في الأسبوع القادم .

ولما تأهّب أبو قير للانصرافِ أراد أن يعطىَ أبا صير أجرة استحمامه ، ولكن هذا رفض قائلا : كيفَ يخطُر ببالك أن تَدْفعَ لى شيئًا ؟ ألسنا أخوين ، لا يُفرق بيننا فارق ؟ وانصرف أبو قير من لدن أبى صير وقد ملأ الحقدُ والحسدُ قلبَه عليه ، لما عاينَه من اتساع ثَرْوَتِه ، وما نالَه من حُظْوة عظيمة عند الملك ، ولم يَسْتَطع من فرط ما به من غِلّ ، العودةَ إلى مصبغته قبل أن يذهبَ إلى الملك فينفُثَ فيه من سمه .

فتوجّـه من فوْرِه إلى قصر الملك ، وطلبَ مقابلتَه ، فأَذِن له ، فلما حظى بها ، قال للملك : إنى حضرتُ إليك يا ملك الزمان على غيرِ موعدٍ ، وفى وقت غيرِ مناسِبٍ ، لأنى عرفْتُ أمراً أهمّنى وشغَل بالى ، وكان واجبًا علىّ أن أُسرع إليك ، لأَقِفَك على ما علِمت ، وأقدم لك النصحَ ؛ فقد أسبغتَ علىّ من نِعَمِك ، وأضفيْتَ علىّ من معروفِك ، مايُوجِبُ علىّ أن أكُون مخلصاً لك ، مسرعاً إلى إبداء ماعندى من نصيحة .

قال الملك : هات نصيحتَك

قال : لقد بلغنى أنك قد بنَيْتَ حماماً

قال الملك : نعم ؛ لقد أتانى رجلٌ غريبٌ ، وبيّنَ لى محاسنَه ،

فأنشأته له كما أنشأتُ لك المصبغة ، وهو حمّام عظيم ازدانتْ به مدينتي

وأخذ الملك يسردُ لأبي قير محاسنَ الحمام وفوائده

فقال أبو قير : وهل دخلتَه يا ملك الزمان ؟

قال : نعم

قال : الحمدُ لله الذي نجّاك من شرّ صاحبِه الخبيث ، عدوِّكَ وعدوِّ الدين .

فعجِبَ الملك من قوله ، وقال : الحمد لله الذي نجاني من شر صاحبِه الخبيث ، عدوِّي وعدوّ الدين . . ما هذا الذي تقولُه يا أبا قير ؟ !

قال الحقود : أعلَم يا ملك الزمان ، أنك إنْ دَخَلْتَ الحمام بعد هذا اليوم ، فإنك هالِك لا محالَةَ .

فازداد عَجَبُ الملك وقال : أأنت جادٌّ فيما تقول ؟ !

قال : إن هذا الحمّاميّ عدوٌّ لك ، كما هو عدوٌّ للدين ، وإنه ما أنشأَ هذا الحمّام إلا ليَبْلُغ عن طريقِه غرضَه ؛ فإن لديْه سمًّا قاتلاً ، يَبْغِي به قتلك ، وهو يَرُوم أن يقدمَه لك على أنه دواء يساعدُ على نظافةِ الجسم ؛ فإذا دلكَ به الجسم ، نفذ إلى داخِله من المسام ، ولا يَمْضِي على ذلك يومٌ وليلة ، حتى يكون قد سَرَى السمُّ مع الدم إلى القَلبِ ، فيهلك مستعمله ؛ واستمرّ أبو قير يفح فحيح الأَفعى ، ويقول :

والسرّ فِي ذٰلك يا ملكِ الزمان ، أنه يريدُ فِداء زوجتِه وأوْلادِه من أسْر ملك النصارى ، إذ وعدَه هذا الملك أن يَفُك أسْرهم إنْ قتَلك .

وسبَبُ معرفة هذا الخبر أنى كُنْتُ أسيرًا معه ، فأخذتُ أصبغ لحاشية الملك ملابِسَهم بالأَلْوان الجميلةِ التى أُتقِنُها ، فأحبّونى ، وخاطبُوا الملك فى شأنى ، فقال لى : ما الذى تَطْلُبه ؟

فطلبتُ أن يطلقنِى من الأَسر ، فأَطْلَقنِى .

وحضَرْت إلى مدِينَتِكم ، وفتحتُم لى المصبغة ، واليوم ذهبت إلى الحمام ، بعد أن سمعتُ الناس يلهجُون بالثناء عليه ؛ ففوجِئْتُ برؤية صاحبه الحامىّ ، إذ عرفتُ أنه هو زميلى فى الأَسْر عند ملك النصارى ، ففرحتُ بخلاصِه ، وسألتُهُ : كيف أطلَق سَرَاحك أنتَ وزوجتك وأولادك ؟ .
فقال إنِّى لم أزل أنا وزوجتى وأولادى مأسورين عند ملك النصارى .
وذات يوم عقد الملك مَجْلسا ، وكنت حاضرا معَ بعضِ الناس ، فسمعْتُ جلساء الملك يتشاوَرُون ، ويتداولون فى أُمُور الدولةِ وشئونها ، وصلتهم بالبلادِ المجاورةِ وملوكها ، وأخذوا يخُوضُون فى أحاديث كثيرة ، حتى جرّهم الحديثُ إلى ذِكْر ملك هذه المدينةِ ، فحينئذ قالَ الملك وهو يكاد يتميّزُ من الغَيظِ : ما قهرنى فى الدّنيا غيرُ هذا الملك ، فإن وجدتُ من يتحايلُ على قَتْله ، ويقتله — أعطيتُه كُلّ ما يطلب — ولو كانَ يطلبُ نصفَ مُلــكى .

فتقدمتُ أنا منه ، وقلتُ له : إذا احتلْتُ أنا على قتْله وقتلتُه ، أتطلِق سراحى أنا وزوجتى وأولادى ؟

قال الملك : نعم ، أطلق سراحَــكُم جميعا ، وأعطيكَ كل ماتتمنى علىّ .

فتم الاتفاقُ بيننا على ذلك ، وأرسلني على أوّلِ سفينة آتية إلى هذه البلاد ؛ فلما وصلتُ ، ذهبتُ إلى الملك ، وأخبرتُه بمشروعِ الحمام ، فأعجبه ووافقَ عليه ، وأنشأه لى ، والآن ليس أمامِى إلا أن أقتُلَه ، وأذهب إلى ملك النصارى ، فأفك إسار أسرتى ، وأتمنّى عليه .

فسألتهُ عن الطريقةِ التي سيَعْمد إليها في قَتْلك ، فقال : إنه قد أعدّ سما قاتلا ، يُدلك به الجسْم ، فينفذ إليه ، فيقتلُ مستعمله ؛ وهو الذى أخبرتُك عنه ؛ فما سمعتُ منه هذا الكلامَ حتى أسرعتُ بالمجىء إليك لأُحذِّركَ ؛ لأن صنائعك عندى كثيرةٌ ، وعوارفك علىّ سابقة ، وخيرك لى كثير ، فأنا أتقلّبُ فى نِعمتك ، وأنْعَمُ بعطفك ، وحياتى موصولةٌ بحياتك ، وعيشى مرتبط بعزّك وجاهك ، فإن مسّك سوءٌ مسّنى ، وإن أصابك ضُرٌّ أصابنى ؛ فإذا كتمتُ عنك هذا السرَّ ، كنتُ خائنا أستحق سخطَ الناسِ وعذابَ الله .

وما انتهى أبو قير من كلامِه ، حتى كان الملك فى أشدّ حالاتِ الاستفزازِ والغضب ثائرَ الأعصابِ ، محتقن الوجه ، يكاد يطفرُ الدمُ من عينيهِ غيظا ؛ فجاهد نفسَه ، وغالبَ عاطفتَه ، ثم قال لأبى قير بصوتٍ حاوَل أن يجعلَه هادِئا : اكتُمْ هذا السرّ يا أبا قير ؛ ولم يزد على ذلك كلمةً واحدةً ؛ وانصرف أبو قير مسرورا ؛ لأنه دبّر مكيدةً ، يقضِى بها على أبى صير ، ناسيا للمرة الثانية ما كان بينهما من عُهود ومواثيق ، أُحكِمت بالأيمان المُغلَّظةِ .

وكان الملك يذهبُ إلى الحمام مرة فى كل أسبوع على ما قدمنا ، ولكنَّه لم يستطع الانتظار إلى اليوم الذى اعتادَ الذهاب فيه .

فما أصبح اليومُ التالى حتى عَزمَ على الذهاب إلى الحمام ، ليقطع الشكّ باليقين ، ويَقِف على حقيقةِ ذلك الخبر الذى نقلَهُ إليه أبو قير .

وكانَ أبو صير سريعاً نشيطاً فى صُنع الدواء الذى أرشدَهُ إليه أبو قير ؛ فإنه ما كانَ يخرج من عنده حتى عمدَ إلى شراء أجزاء الدواء وتركيبه ، ثم ما كانَ أشدّ سروره واغتباطَه ، حين حضر الملك على غيرِ ميعادٍ ، وقد فرغَ هو من الدواء الذى أعده هديةً له .

وصاحَبَ أبو صير الملك إلى المقصورة المعدّة له ، وشرع فى مُهِمَّته معه على عادته ، ثم قال للملك ، وقد تهلّل فرحا : يا ملك الزمان ، لقد صنعتُ لك دواء جديدًا يساعد على نَظافة الجسم

فقال الملك ، وقد أيقن صدقَ أبى قير : أَحْضِرْهُ لِى

فسارع أبو صير إلى إحضاره ، فأخذَه الملك منه ، وشَمَّ رائحته ، فوجَدها رائحة كريهة ، فتأكَّد أنّه سُم قاتل . وثبَت عنده أن الحامىّ يُريدُ قتله .

فارتدَى ملابسه ، وقد احتدَمَ برأسه الغضبُ ، ثم أمَرَ جنودَه بالقبض على أبى صير .

قبضَ الجنودُ عليه ، وهُمْ لا يعرفونَ لغَضَبِ الملك سَببًا .

وعاد الملك وجنوده مصطحبين أبا صير معهم إلى القصر ، ولا يجسرُ أحدٌ أن يسأل الملكَ عن سببِ غضبتِه ، لشدّةِ ما اعتراه من التغير .

وعقد الملك من فوره مجلساً ، وأمر بإحضار بحّاره الأوّل ، فلما حضر قال له :

خذ هذا اللّعين الخائنَ الغدّار (وأشار إلى أبي صير ، وكان مُوثقاً بالحبال وملقى على الأرض) ، وضَعْهُ فى غرارةٍ كبيرة ، وضَعْ معه فيها قنطارَين جيرًا حيًّا ، وأغلِق فمَ الغرارة جيدًا ، وضعْها فى زَوْرق ، واحضُر بها تحتَ نافذتى ، حيث تجِدُنى أطِلّ عليك ، وأُشيرُ لك على المكانِ الذى تُلقيها فيه بالبحر ، ليدخُل الماء فى الغرارة ، فينطفئْ الجيرُ الحيّ على هذا الخائن ، ويموت غريقًا حريقًا .

فقال البحار : سمعًا وطاعة يا ملك الزمان .

وأخذ البحارُ أبا صير ، وذهبَ به إلى جزيرة فى الضفّة المقابِلَة لقصرِ الملك ، وقال له : يا هذا ، أنا جئت عندكَ فى الحمام مرةً ، فأكرمْتَنى غايةَ الإكرام ، وخدمْتَنى أجلّ خدمةٍ ؛ لذلك أحبَبْتُك ، وأعظَمْتُك وأكبرتُك لما لمستُه فيكَ من طيبِ القلْب ، وصفاءِ السريرة ، فأخبرنى : ما ذَنْبُك لَدَى الملك ؟ وأىّ شىء أتيتَه حتى غَضِبَ عليكَ كلَّ هذا الغضب ، وأمر بأن تموتَ تلك الميتة الشنيعة ، التى لم يَحكُم بها على أحدٍ من قبلك ؟ !

فقال أبو صير : والله ما عَمِلتُ شيئا يُغضِب الملك ، ولا أعرفُ لى ذنبًا جنيتُه ، ولكنى مخلصٌ له دائمًا ؛ فهو سيِّدى ووليّ نِعْمَتى ، وهو

الذى أنشأ لِى الحمام ، وشجّعنى بما أعطانى من المـالِ ؛ فلعلّ فى الأمرِ سِرًّا لا أعرفه .

فقال البحارُ : لقد كان لك عندَ الملك منزلةٌ كبيرةٌ ، ما نالها أحدٌ من قبلِك، وكل ذِى نعمةٍ محسود ، فلعلّ أحدًا قد نَفِس عليكَ ما نِلتَه من النعمةِ والجـاهِ ، فدسَّ وشايةً عليكَ عند الملِك ، فغَضِب كلَّ هذا الغضب ؛ ولـكنْ ، لا بأسَ عليك ، فأنتَ رجلٌ كريمٌ صادقٌ ، وقد اقتَنَعتُ بقسَمِك أنّكَ برىء ، وسأُخلِّصُـك أنا جزاءَ إكرامِك لى ، ومَعروفِك عندى ، وليس أمامى طريقةٌ أخلصُك بها إلا أن تُقِيم فى هذه الجزيرة ، مُختفِيًا فى زى صائدِ سمكٍ ، حتى تُصادفنى سفينةٌ مسافرةٌ إلى بلادِك ، فأرسلك معَها ، وتَنْجُو بحياتك ، وتخلُص من ميتةٍ شنيعة ، هيّأها لك الملك ؛ وإن الناس الطيِّبين مثلك ، الذين سَلِمتْ قلوبُهـم ، وصفتْ سرائرهم ، وحسُنَت نيّاتهم ، وطابت صدورهم ، لا يستطيعون أن يعيشوا فى كنَفِ المُلوك .

فقبّل أبو صير يد البحار ، وشـكَره على مروءتِه ومعروفِه ، وهو يشـكِى تأثرًا بما غمرَه به من فضل .

وأحضر البحّارُ لأبى صير شبكةً ، وقال له :

أُرْم هذه الشبكةَ فى البحر ، لعلّكَ تصطادُ شيئا ، نُرسلُهُ إلى مطابخ الملك ، فأنا الموكّلُ بها ، وسأذهبُ أنا لأحتالَ على قضاء المُهمّةِ التى أمرنِي بها الملك .

فقال أبو صير : سمعًا وطاعة ، اذهبْ أنتَ والله مَعك .

فذهبَ البحّار وأحضر غرارةً كبيرةً ، ووضع فيها حجرًا كبيرًا ، ثم مَلأها بالجير وأغلَق فَمَها برِباط محكَم ، ووضعها فى زورقٍ ، وسار به فى البحر متّجِها نحو قصرِ الملك .

وشاهَد الملك جالسًا بنافذةِ القصر ، يرتَقِب حضورَه ، فاقترب حتى صارَ أسفلَ النافذةِ ، وقال للمِلك : يامِلِكَ الزمان ، لقد فعلتُ ما أمرْتَنى به .

فقال المِلك : وهو يُشيرُ بيدِه : أَلقِه هُنا تحت نافذةِ قصرِى ، ليموتَ غَرقًا وحرقًا أمامَ عينى ، وبينما المِلك يلوِّحُ بيدِه مشيرًا للقبطان ، سَقط من يدِه إلى البحرِ شىءٌ يلمع ، وكان هذا الشىءُ الذى لمع وسقط هو خاتَم الملك ، وكان خاتمًا مرصودًا ، ما هابه ملوكُ البِلاد ، وسائر الناس إلّا به ، وكانت خاصيته أنه إذا أراد أن يُميت أحدًا لساعتِه ، أشار عليه بخاتَمِه ، فيخرجُ منه بارقٌ يصيب المُشار إليه ، فيُصْعَقُ لوقته .

فكتم المِلك فى نفسِه خبرَ ضياع الخاتَم ، ولم يجسُر حتى على إرسال خدمِه للبَحْثِ عنه ، مخافةَ أن يَنتشِر خبرُ ضياعه ، فلا يعودُ يهابه أحد ، ويَفْقِد مُلكه .

أما أبو صير ، فإنه بعد أن تركه البحّارُ أخذ الشبكةَ ، فطرَحها فى البحر ، ثم جذَبها ، فخرَجَت ، وهى مملوءةٌ بالسمك ، فطرحها ثانيةً ، فخرَجَت كذلك ؛ وما زال يَطرحُها ويجذبُها ، وهى تخرجُ مملوءةً بالسمك ، حتى صادَ كميةً كبيرةً منه ، فتاقَتْ نفسُه إلى سمكةٍ يشويها

ويا كلها ، فانتقى واحدة ، وقطعها بسكينة ، حتى إذا ما عاد البحارُ ، استأذنه فى شيها ، فأذن له ، وبينما هو يجزها علق طرف السكين بخيشومها ، فحاول إخراجه ، فلم يخرج ، فنظر فرآها عالقة بخاتم داخل خيشوم السمكة ، فعجب أبو صير من ذلك ، وأخرج الخاتم ولبسه فى إصبعه .

وكان هذا الخاتم هو خاتم الملك الذى سقط فى الماء من الملك حين كان يُشيرُ إلى البحار ، ابتلعته هذه السمكةُ ثم مرّت بعد ذلك بالمكان الذى يصيدُ به أبو صير فوقعتْ فى شبكته .

وبينما أبو صير جالسٌ ينتظر حضورَ البحار ، إذْ أقبلَ عليه غلامان من خدم مطابخ الملكِ يرومان السمك ، فرأيا أبا صير جالساً بجانب السمكِ ، ولم يجدا البحارَ ، فتقدما منه وسألاه :

يا رجل ، أين ذهب البحارُ ؟

قال : لا أعلم .

وطوحَ بيدهِ التى بها الخاتم نحوهما ، فإذا بهما قد سقطا إلى الأرض .

فدهش أبو صير لأمرِهما ، وقام إليهما فوجدهما جثتين هامدتين ، فتأسّف وتحسرّ عليهما ، وجلس بجانبهما يفكرُ فى حيرةٍ فى سبب مصرعِهما .

وبعد لحظةٍ أقبل البحّار فرأى أبا صير جالساً بجانبِ كومةِ السمك ، وبجانبه الغلامان الصريعان ، ولمحَ الخاتم يبرُق فى إصبع أبى صير ، فعرفه

فيه خاتم الملك ، فأدركَ ما حصلَ ، وابتدَر أبا صير قائلا :

لا تُحرِّكْ يدَكَ التي بها الخاتمُ تَحْوِى ، فإنكَ إن فَعَلتَ ذلك قتلْتَنى .

فتحيَّر أبو صير من هذهِ الأَحاجى ، ونظر إلى البحار مستَفْسِرا ، فقال البحار :

مَن الذى قَتلَ هذين الغلامَيْن ؟

قال أبو صير : والله يا أخى ما أدرِى ! ! أقْبلا علىَّ ، وسألانى عنك ، فأَخبرتُهما أنى لا أعرِف مكانَك ، ولم أكد أنتهِى من كلامى حتى رأيتُهما صريعَيْنِ كما ترى .

قال البحارُ : أخْبِرنى من أين وصَل إليك هذا الخاتمُ الذِى بأصبعك ؟

قال أبو صير ، وجدتُه فى خَيْشومِ هذِهِ السمكة .

وأراه السمكةَ المشقُوقة .

فقال البحارُ : صدقْتَ ، فقد رأيتُ الخاتم وهو يَسقُطُ من يد الملك حين أشار بيدِهِ إلى المكانِ الذِى أراد إلقاءَ الغرارة فيه ، فلا بُدّ أن هذهِ السمكة قد ابتَلعتْه ، ثم وقعت فى شبكتك ، فوجدته فيها ، فأصبحَ من نصيبك ، ولكن أتعرف خواص هذا الخاتَم ؟

فقال أبو صير : والله لا أعرِف له خواص .

قال البحارُ : اعلم أن هذا الخاتمَ مرصودٌ ، فإذا ما غَضِبَ الملك على أحدٍ ، وأراد قتلَه أشار به عليه ، فيخرجُ منه شعاعٌ يصيب المغضوبَ

عليه ، فيسقط من فَورِه على الأرضِ صَريعاً . ففَرِح أبو صير فرحاً شديدا لحصولهِ على هذا الخاتمَ ، وقال للبحار :

عُدْ بى إلى المدينةِ يا سيدى .

فقال البحارُ : سأعودُ بك إلى المدينةِ ، ولا أخافُ عليكَ مِن الملك بعد حُصولك على هــذا الخاتم ، لأنّكَ إنْ أردتَ قتل أىِّ إنسانٍ أمكنَك قتله .

ثم أنزلَه إلى الزَّورَق وعاد بِه إلى المدينة .

— ٥ —

دخل أبو صير المدينةَ ، وذهب إلى قَصْرِ الملك ، وكان الملكُ جالساً فى دِيوانِه ، فتمكّنَ من الدخُول عليهِ ، فرآه جالساً ، يُحيطُ به رجالُه وعساكرُهُ ، فنظر إلى وَجْهِه فرأى علاماتِ الحزن الشديدِ مرتسمةً عليه ، وبدا فى نظرات عينيه وحركاته قلقٌ شديد لفقدِه الخاتم ولا سيما أنه ليس له أملٌ فى العثور عليه .

وما وقعَ نظر الملك على أبى صير ، حتى صاحَ فيه غاضِبا مهتاجا ثائراً :

أما ألقَينَاكَ فى البَحْر ؟ ما الذى أخرَجك منه ؟!!

فقال أبو صير : حِلْمك يا ملك الزمان ، إنك لما أمرْتَ بإلقائى ، أخذنى بحارُكَ إلى جزيرةٍ ، وسألنى عن سببِ غضَبِك منى ، وسُخطك علىّ ، فأخبرته أنى ما فعلتُ شيئا ، فلم أرتكِبْ ذنبا ، ولم أقترفْ إثما ،

فقال لى : إنَّ منزلتَك كانت كبيرةً عند الملك ، فلا بُدَّ أن أحداً حسدَك ، ووشَى بكَ عِنْدَه ، حتى غَضِب عليك ، ولـكنِّى سأخلِّصُك وأرجعك إلى بلادِكَ مكرَّما ، كما أكرمتَنِي حينما حضرتُ عندكَ فى حمامِك ، ووضع فِي الغرارةِ بدلا منى حَجَرا ، ورماها فى البحر عندما أمرتَه بذلك ، ولـكنكَ حين أمرتَه أن يرمِيَ بالغرارة التى كنتَ تظُنُّ أنى فيها سقطَ من يدِك خاتمك ، فابتلعتْهُ سمكةٌ ...

ثم أخذ يقص عليه قصته ، حتى أتَى إليه .

وقال : وإنى قد حضرتُ لأَرُدَّ لك الخاتم ، لأنك كنت قد فعلْتَ معى معروفا لم يصنَعه غيرك وأكرمتَنِي ، وبالغتَ فى إكرامى ، وأنا لِذلك أحبَبْتُك وأعزَزْتُك ، وتعلقَ قَلبِي بك ، وأخلَصْتُ لك الإخلاصَ كله ، فما خطَر ببَالى أن أكُون ضدك ، أو حرْبا عليك ، ولم أُضْمِر لك سُوءا فى يوم من الأيام ، فأنتَ ولىُّ نِعمتى ، وسببُ سَعادتى ؛ ولـكن هذا التغيُّر المفاجىء الذى رأيتُه منكَ أَدْهشَنِي ، وجَعَلنى فى حَيْرةٍ ؛ ولم تَمْنَحنى فرصة أستطيع أن أسأل فيها عن سببِ غَضَبِك علىَّ ، وإنكارِك لى ، حتى أمرتَ بِقَتْلى حرقا وغرقا .

فهلْ أستَطِيعُ بعد ذلك كلِّه أن أقِفَ على سببِ غَضَبك علىّ ، وعلى ذَنْبِي الذى ارتكبتُه ، وإن لك يا ملك الزمان بعد هذا أن تقتُلنِى ، وتُمثِّل بِى إن أردت .

ثم خلع الخاتَم مِن إصبعه وأعطاه للملِك .

فلما رأى المِلك ما فعله أبو صير ، وكان قادِراً على قتله لو أراد ، كبُر في عينيه ، ونهض إليه ، وعانقه وقبّله .

ثم لَبِس الخاتم ، وقد كادَ يطيرُ من شدةِ الفرح ، وقال لأبي صير ، وقد أيقن من براءته : يا رَجُـل ، إنك لأنبلُ شخصٍ قابلتُه ، فلو كان أحدٌ غيرك مَلَك هذا الخاتم لما أعطانيه ، فكيفَ بك ، وقد عثرتَ عليه بعد أن ظلَمْتُك ، فأمرت بقتلِك على صورة بشعة شنيعة ، فينجيك البحار لما أسْدَيتَ إليه من معروف ، ثم تعود وتردّ إليّ هذا الخاتم وتنْسَى أنّي قد أسأتُ إليك ؛ يا لَكَ من إنسان مثاليّ في خُلُقك ! ولقد ثَبَتَ عندي بفعلِكَ هذا أنك بريءٌ ؛ فالحمد لله الذي نجّاك مما أرَدْناه لك من سُوء ؛ والآن ، أرجو أن تغفر لي ذنبي ، فقد أسأتُ بك الظّن ، وصدّقت وشايةَ الوُشاة ، فسامِحْني يا أخي ، ولَكَ عندي ما تشاء .

فقال أبو صير : يا مِلك الزمان ، ما زلتُ أُلِحّ في أنْ أعرِفَ سبَبَ غضبِك عليّ حتى أمرت بقَتْلي ، فإنك إن فعلتَ زال ما في نفسي .

قال المِلك : إنما هي وشايةٌ وشاها إليّ الصباغ ، حيث قال ..... وأخبرَهُ بجميع ما قاله الصبّاغ .

وأنصتَ أبو صير إلى قول المِلك ، وقد ساءه جداً أن يكذِبَ عليه أبو قير .

ولما انتهَى المِلك من سَرْدِ حديثه ، كان أبو صير في أشدّ حالات الحنق والاشمئزاز من خُبْثِ نفس أبي قير ، ولؤمِ طبعه ، وانحطاط خُلُقه ،

فقد جازاه أسوأ مجازاة بعد كلّ ما قدّم إليه من معروفٍ ، ونسى أنه تركه فى الخانِ مريضاً ، وسلبَه نقوده وخرجَ ، ثم رحّبَ به حينما رآه فى الحمام وأكرمَه ، ولكنّه بعد ذلك كله يَشِى به عند الملِك وشايةً تُودِى بحياته .

فقال الملِك : والله يا مَلِك الزمان ، إنى لا أعرفُ ملِكَ النَّصَارى ولم أذهَبْ إلى بلادِه فى حياتِى ، ولكن هذا الصباغ كان رَفيقى وجارِى فى مدينةِ الإسكندرية و . . . وقصّ عليه قصّتَه معه ، وكيف كان يجرى وراء رزقه ، ويطعمه وهو نائمٌ فى الخان ، ثم كيف تركه مريضاً ، وأخذ نقودَه ، ثم ما كان من ضربهِ له عند ذهابه إليه فى المصبغة ، وادّعائه عليه بأنه لِصّ ، ثم حضوره إلى الحمام ، وما قاله له عن الدواء .

واختَتَم أبو صير حديثه ، باستشهادِه ببَوّاب الخان ، و بعمّال المصبغة ، وطلب استدعاءهم ، ليسمع الملِك منهم ما رأَوْه وما سمعوه .

فأمر الملِك باستدعائهم ، فأحضروا ، وسمع أقوالهم ، فأيّدُوا كلامَ أبى صير ، وأيقَن الملِك أنه صادق ، وأنه رجلٌ فيه إنسانية ، وفيه خيْر ، ومن كان مثله يُنجيهِ الله من كلّ ضِيق يَقعُ فيه ، ومهما حاول غيرهُ أن يؤذيه ، فإنّ الله يُنْجيه .

أمر الملِكُ جنوده بالمسارعة إلى القَبْض على أبى قير ، وإحضاره موثقاً بالحبال ، مكشوف الرأس ، حافِىَ القدمين .

وكان أبو قير جالساً فى منزله ، مسروراً لنجاح مكيدتِه التى كادَها

لأبى صير ، وأدّتْ إلى قتله ؛ ولم يُؤنّبْه ضميرُه على أنه آذى رجلاً كان يُحسِن إليه .

فما شعَر إلا والجنودُ قد أحاطوا بداره ، واقتلعوه من مكانه ، فحاول أن يستفهِم عن سببَ مغالظتِهم له ، واشتدادهم عليه ؛ فما أجابوه إلا بالضرْبِ بالعصىّ والصفع على القفا ، والرّكلِ بالأقدام ، ولم يخفّف عنه صراخ ولا عويل ، ولا استغاثةٌ ولا استرحام .

وما زالوا به يَسُوقونهُ أمامَهم سوْقَ الأنعامِ حتى أوْصلوه إلى قصر الملك ، فرأى أبا صير جالساً بجانبه ، وأمامهما بوّابُ الخان ، وعمّال المصبغة .

فأشارَ الملِك إلى الشُّهود ، أن يتكلموا ، فقال بوّاب الخان لأبى قير : أليس هـذا رفيقَك ، الذى سرقْتَ نقوده ، وتركْتَه فى الحجرة مريضاً عليلاً لا يَقوَى على الحركةِ ، حتى كشفْتُ أنا مرضَه ، ولولا لطفُ الله ، لمات جوعاً داخل الغُرفة التى أغلقْتَها عليه ، وظل فيها حَبيساً ثلاثة أيام يئِنّ ويتوجّع ؟!

وقال عمال المصبغة : أليس هذا الذى أمَرْتَنا بضربه ، على أنه لص ، وما رأيناه سرَق شيئاً ، وقد كان ذلك موضعَ عجبٍ منّا واستِغراب ، لأننا نعلم أنه لم يَسْرِق شيئاً ، وأنه لم يحضُر إلى المصبغة إلاّ فى ذلك اليوم الذى أمرتَنا فيه بضربه ، ولكننا لم نملك إلاّ أن نُطيعَك ، فضربناه ضرْباً موجعاً مُبرِّحاً ؟!



حينئذ تبيّن الملِك سُوء أخلاقِ أبى قير وعِظَم شناعة جُرمه ، فقال لجنودِه : جرّدوه من ثيابه ، وطوفوا به فى المدينـةِ ، عبرة لمن يعتبر ، ثم ضعوه فى غرارة مملوءة بالجيرِ الحىّ ، وألقوه بالبحر ، ليموت غرقاً وحرقاً ، كما حكمنا على صاحبه الطيّب من قبل ، فنجاه الله ، فهذا الحقود الخائن أوْلَى بهذه الميتة .

فقال أبو صير للملِك : يا مَلِك الزمان ، شَفّعْنى فيه ، فإنِّى مُسامحه ، ومتجاوزٌ عن جميع ما فعله معى ؛ وما ذلك إلاّ لأنّ الشيطان كان يُسَيْطِر عليه ، ويُغْرِيه بفعلِ السوء ، وقد يُصْلِحُه العفوُ عنه ، والتجاوزُ عن سيّئاته .

فقال الملِك : إن كنتَ سامحتَه فى حقّك ، فأنا لا يُمكن أن أسامحَه فى حقّى ، فإنّ هذا أسوأ مَثَل للإنسان الشّرير ، وإذا لم يلقَ جزاءه ، تمادَى فى شَرّه .

ثم صاح على الجنود قائلاً : خُذُوه .

فأخذوه ، وطافوا به حول المدينة كما أمر الملِك ، ووضعوه فى الغرارة المملوءة بالجير الحىّ ، وألقوهُ فى البحر . فماتَ غريقاً حريقاً ، جزاء حِقده وغَدْره .

وعرض الملِك الوزارة على أبى صير ، ولـكنه رفض ، فقال له : تمنّ علىّ تعط يا أبا صير .

فقال : تمنّيتُ عليك أن تُرسلَنى إلى بلادى ، فإننى ما بقى لى رغبة فى البقاء هنا .

فأَذن له الملِك بالسفَر ، ولم يعارضْه ، ووَهب له أموالاً كثيرة ، وأعطاهُ عطايا عظيمة ، وأنعَم عليه بسفينةٍ مشحونة بالخيْرات ، وجميع بحّارتها من مماليكه ، فوهَبهم له أيضاً .

وودّع أبو صير الملِك ، ثم أقلع بسفينته .

وما زالت السفينة تمخر بهم البَحْر ، حتى ألقت مرساها بشاطىء الإسكندرية ونزلَ جميع مَن فيها إلى الشاطىء ؛ وإذا بمملوك يهرع إلى أبى صير قائلاً :

يا سيدى ، إنّ على حافة الشاطىء غرارة ثقيلة محكمة الرّباط ، ولا أدرى ما فيها .

فذهب أبو صير إليها ، وفتحها ، فوجد فيها جثة أبى قير .

فوقف يتأملها برهة ، وما مَلَكَ دموعه فإنها طفرَتْ من عيْنَيه .

وتذكّر مغادرتهما هذا الشاطىء معاً ، والقسَم الذى أقسما على العمل به حتى يعودا ؛ وها هُو ذا قد عادَ ، وعادَ أبو قير ، ولكن شتّانَ بين الحالتين ، فهذا حىّ ، وذلك ميّت ؛ وهذا مرضِىٌّ عنه ، عطر السِّيرة ، وذلك مغضوبٌ عليه ، ملعُون فى دنياهُ وآخرته .

ولم يَعُد يُفكّر أبو صير إلا فى العمل على دَفن صاحبه ، استجابة لما

طبع عليه من كرم الخلق والصفح الجميل .

فدفنه بالقرب من الإسكندرية ، وأقام له ضَريحاً وقَفَ عليه أوقافاً لينفق من ريعها عليه .

ولما وافَى الأجل أبا صير ، دُفن بجانب أبى قير ؛ وعُرف المكانُ بين الناس باسمِ أبى قير وأبى صير .

ثم اشتهرَ بعد ذلك بشاطِىء أبى قير .



تاج الملوك

كانت المدينةُ الخضراء ، من وراء جبالِ أصبهان في العُهود الخوالى ، مُستَحِرّةَ العُمران ، نفّاحةً بالحياة ، وجَمعَ ملكُها سُليمانُ سُلطانَ الجماعةِ في يدِه ، بما كتبَه على نفسِه ، من عدلٍ وإحسانٍ ورحمة ؛ فسخّر رعيتَه لسُلطانِ أمرِه ، ونفاذِ حُكمه ، وعاش مدةً مديدة من الزمان ، في ظلّ ممدودٍ من سلامٍ وأمان ، لا يُرنقُ صفوَ عيشِه ، إلاّ أنه لا وَلدَ له ولا زوجة ، وكان وزيرُه على سنته ، في سماحة نفسِه ، وفيضِ إحسانِه ، وشمُول عَدله ؛ فخَلاَ بهما مجلسٌ ذات ليلة ، فقال : لقد أثقلَ كاهِلى ، وقصمَ ظَهرى ، أنى من غيرِ صاحبةٍ ولا وَلَد ، وما كان لى أن أصبِرَ على هذه الحال ، ذلكَ العمرَ الطويل ، وما كنتُ لأخرجَ بالعكوفِ عليها عن سنةِ الملوك ، وأعصِىَ ما أشارَ إليهِ الرسولُ الكريمُ بقوله : « تناكحوا

تناسلوا تكثروا فإنى مُباهٍ بكم الأممَ يومَ القيامة » ؛ ومن الخيرِ أنْ أسعى إلى زوج طيّبةٍ دَيِّنة ، كريمةِ العِرق ، ذاتِ نسبٍ زكىّ ممدود ، وحسَبٍ شريف غيرِ محدُود ، لعلّى أُرزقُ منها بولدٍ يَرثنى من بَعْدى ، ويكونُ مثلاً فى التقْوَى والرُّجولة والعزّة ، والإشبالِ على رَعيّته إشبالَ الأُمُومةِ ؛ فقال الوزير : ولقد يسّرَ اللهُ أمرك ، وقضى مَآرِبك ؛ فقال : وكيف كان ذلك ؟ فقال الوزير : بلغنى أنّ للملِك زهرشاه ، صاحبِ الأرضِ البيضاء ، بنتاً هى للدِّين وللدنيا ، جمالٌ وتقْوَى ، تتوسّمُ فى أساريرِها نورَ الدين ، وتتنسمُ من أعطافِها ريحَ الخُلُق العظيم ؛ وهى حَسناء هَيفاء تفوقُ طلعتُها الشمسَ والقمر ، وأرى أن تُرسلَ فى خِطبتِها من أبيها ، رسولاً فَطِناً خبيراً ، يتلطفُ فى القول ، ويأتى الأمورَ من أبوابها ، فانصرفَ عن الملِك الهمُّ ، انصرافَ الليلِ المُرْعد عند الصباحِ الوَديع . وقال : إن أراد اللهُ لنورِ الأولادِ أن يُشْرِقَ فى هذا القصرِ الملكىّ المتواضع ، ويمحُوَ هذا المقْمَ المصنوعَ الوادِع ، فيضك له : بما تجلّى فيك من مواهبِ الرأى والفطانة ، وقد وكاتُ إليكَ معالجةَ هذا الأمر ، فلتُسافِرْ إليه من غدِك ، واللهُ يوفّقُك ؛ فقال الوزير : أمرٌ مُطاع ، وعلى اللهِ قصْدُ السَّبيل .

ورأى الوزيرُ من الحكمةِ أن يربطَ الملكيْنِ برباطٍ من الوُدِّ ، قبل أن يبلغَ رسالتَه ، فحَملَ معه من الهدايا ما يليقُ بملكٍ عظيم ، فهذه جواهرُ نفيسة ، وتلك جيادٌ صافِنات ، وأولئك جَوارٍ حِسان ، وهؤلاء عبيدٌ وغِلمان ؛ وسار يَطوى القَفْرَ والبِيدَ ، فلما كان من مدينةِ زهرشاه

على مَسيرةِ يوم ، نزلَ على شاطىء نهرٍ صَفا ماؤه واقشعرّتْ مُوَيجاته ، فى كَنَفِ شجرةٍ ذاتِ ظلٍّ ممدود ، وزهرٍ مَنضـــود ، نَسمُها رُخاء ، وعَبيرها يفوحُ فى الجِواء ؛ ثم أوفدَ أحدَ رجاله إلى الملِك زهرشاه ، يُخبِرُه بقدومه ؛ فلما أوْفى على مدينتِه — وكان جالساً فى بُستانٍ بظاهِرها — رآهُ فى حركاتٍ وهيئةٍ ينِمّانِ عن غُربتِـه ، وأنه ليسَ من أهل تلْكَ المدينة ، فأرسلَ إليه مَن أحضرَه بين يدَيْه ، وسألهُ عن مَقصدِه وغايته ، فأخبرَه نبأ قدومِ الوزير ، وأنه تركَه على نهرٍ بيننا و بينَه مسيرة يوم ، وفى طريقه الآنَ إلى المدينة ؛ وربُما وصلَ إليها غدًا ، فاصطحبَه الملِكُ إلى قصرِه ، وأمر بعض وزرائه وحُجّابه ، أن يخرجوا للِقاءِ وزيرِ الملِكِ سليمان شاه ، تكريمًا له وتعظيما .

ولما جمعت الشمسُ أشعّتَها وتوارَت بالحجاب ، استأنفَ الوزيرُ سيرَه إلى المدينـة ، يَشُقُّ سُدولَ الظلام ، على هُدًى من النجوم ، فى طريقٍ رحبٍ ، وحولَه من الفراغ نِطاقٌ مُخيف ، يثير البلابلَ فى الخواطر ، ولما انبثقَ نورُ الصباحِ لقيه وفدُ المليكِ لقاءَ الماشقِ المتوَجّدِ فتاته ؛ فاستبشرَ الوزيرُ بهذه الحفاوَةِ البالغةِ ، وظنّ أنه بالغٌ مأربَه ، وسجّلَ فى نفسِه أوّلَ بارقةٍ من بَوارقِ أملِه ، وخفُّوا جميعُهم إلى المدينـة ، فألفاها الوزيرُ جيّاشةً بالحياةِ ، مَوّارةً بالحركة ، متوثّبةَ الهمم ، متواطئةَ على الجدِّ والعمل ، حتى كانوا أمامَ قصرِ الملِك زهرشاه ، فإذا حديقـةٌ تتصـدّرُه ، ذات رُوَاءٍ بهيجٍ ، ومَنْظَرٍ فاتن ، يسحَرُ اللُّبّ ، ويملِكُ

الطَّرْف ، فسرْنا فى مماشيها بخُطًى مُتئدة ، حتى ولجَ بى وزيرُ الملك بابَ القصر الحديدى ، المكسوّ بالنحاسِ المُموّه بالذهب ، إلى دهليزٍ عَريض مَمْدود ، وقفَ حرسُ الملكِ بأسلحتهم فيه صفَّين ، ذات اليمين وذات الشمال ، وانتهى بنا إلى إيوَانٍ مرتفع ، فصعدنا فى سُلَّم من الرخامِ الناصعِ بياضُه ، والمحلى جانباه بأُصصِ الأَزهارِ المختلفة ، تفيحُ بأريجها العَطِر ، وأذِنَ لنا بالدخول ، فإذا الملكُ جالسٌ فى صدرِ الإيوان ، على عرشٍ قوائمُه من العاج المرصَّع بالدّر والجوهَر ، ذى فرشٍ وَثيرٍ من سُنْدسٍ وإستَبرَق ، ورجالُ دَولته جالسُونَ أمامَه فى استدارةِ الهلالِ فى صدرِ السماء ، فحييْت الملكَ ومَنْ معهُ تحيةً طيّبة ، وأَجْلسنى على كرسيّ بجوَارِ عَرشِه ، وسِماتُ الفرح بادية على وجْهه ، متألقةٌ فى وجُوهِ حاشيتِه ، وأمَرَ بإكرامِ من حضرَ معى من جوار وعَبيد ، وأَحضرَ مائدةً جَمعتْ مالذَّ وطابَ ، من صنوفِ الطعام والشَّراب فأكلنا مَريئا ، وشربْنا هنيئا ، ورأيتُ من عظيمِ إقبالِه ، وكَريم إيناسه ، ما طمأَننى على ماجئتُ من أجْلِه ، ولما خَلَا الإيوانُ إلا من الملكِ وخاصتِه ، نهضتُ واقفا بين يدَيه ، فقلتُ :

أيها العاهلُ الكبيرُ ، لقدْ ذاعَ فضلُك ، وطبقَ الآفاقَ مجدُك ، وتنفَّست الأنديةُ بأريجِ سيرتكَ ، وبالغِ حكمتِك ، فرغبَ فى الزلَفى إليك الملكُ سليمان شاه ، وجعلَ المصاهرةَ وَشيجةَ الامتزاج والمحبة ، ورابطةَ القُربَى والأُلفَة ، وأحبَّ أن تكونَ ابنتك الكريمة ، زوْجا له ، فيُضيف بذلك كلٌّ منكما إلى مُلكِه مُلكا ، وإلى جُنده جُندا ، وإلى سلطانه وقوته



سلطانا وقوة، وتُصبحا مَبعثَ هيبة، ومَشرِقَ سَطوة، ومَهبِط رجاءٍ ورغبة، وملاذَ كل ذى حاجةٍ ومعونة، وحِرصاً من الملكِ سليمان على سُرعةِ إنجازِ رغبتِه، إذا حازتْ منكم القبولَ والرضا، فقدْ وكَّلنى عنه فى عقدِ الزواج والأمرُ بعد ذلك للملك المظيم زهر شاه، فتمايلَ الملكُ فرِحا وقال: تلك أمنيّةٌ جادَ بها الزمانُ، وواتانى القدَر، ومِن الخير أن نُعجلَ بها، ثم أمر بالقاضى والشهودِ أن يحضروا بالإيوانِ الليْلة، وتألقت الأضواء فى جنبات القصرِ وأرجائِه، وخَفقتْ أعلامُ الأفراحِ والبهجة، وصدَحت الموسيقى ابتهاجاً ومسرة، وفى حضرةِ وزرائه وخاصّتِه، تمّ عقدُ الزواجِ بين سِماتِ الغِبطة، ومَعالم الزينَة، ثم استأذنَ الوزيرُ، أن يقبلَ الملك ماجاءَ به من الهدايا، فقبلها شاكرا.

وأعانَ الملكُ إقامةَ الولائم فى قصره، يؤُمّها أبناء مدينته، ابتهاجا بزواجِ الأميرة، وسرى هذا النبأ سريانَ الحياة فى النّبات، فازدَهرَ كلُّ بيتٍ، وازَّيّنَ كلُّ شارع، بالأعلام المرفوعَة، والراياتِ الخفاقة، وألعابِ الخيل ومظاهرِ اللهو، وألوانِ المرَح، فى كلّ بُقعةٍ، فامتلأ الجوُّ بأغاريدِ الغِناء، ونغماتِ المزامير، وأصواتِ الدُفوفِ والطبول، وخلفتْ أنوارُ المصابيح شمسَ النهار، فمحيتْ آية الظلام، شهرينِ كاملين، أعدّ الملك فيهما أثاثَ ابنتِه وفراشَها، وأعدّ هودَجا منْ خالصِ الحرير، المنقوشِ بالذهب، والمحلّى بالجواهرِ والدّرر، لتسافرَ فيه إلى بَعْلها.

وفى غُرةِ الشهرِ الثالث، ودّعَ ابنته فى حَفلٍ جامع، على بُعدِ ثلاثة

فراسخَ من عاصمةِ مُلـكِه ، ثم رجعَ هو ومنْ معه .

وسارَ الوزيرُ بها ، ومَعَهُ أثاثُها وفِراشُها ، وعبيدُها و إماؤها ، حتى كانَ عَلَى مَسافة يوم مِن مدينةِ ملـكهِ سُليمان شاه ، فأوفدَ رسولا إليهِ ، يخبِرُه بقدومِ العروسِ عَلَى خيرِ ما يودّ ويَبْغِى .

وكان الملكُ سليمان شاه فى تلك المدةِ ، يتقلبُ على أحَرّ من الجَمر ، مُرتَقِبا وزيرَه ، راجيا أنْ يعودَ فائزا منصورا ، وما كادَ الرسولُ يخبرُه بقدومِ العروس ، حتى بُعثَ خلقا آخر ، يفيضُ حياةً وقوة ، ويشِـع نورا ووضاءة ، وأصدرَ أمرَه ، أنْ يخرجَ الجنودُ رُكبانا ورِجالا ، لاستقبال العروسِ فى حفلٍ عسكرِىّ رائع ، وطارَ الخبرُ إلى المدينة ، فهبّتْ نساء ورِجالا ، شيوخا وفِتيانًا ، إلى لقاء الملـكة ، فى سَـكرةٍ منْ فَرحٍ ومَسرّة .

وجاءت العروسُ إلى قصرِ الملك ، والفرحُ من حَولِها بادٍ فى الأَفواهِ زغردةً وغناء ، وفى الأَيدى تصفيقا ، وفى الطبولِ نَقْرا ودَقّا ، وفى آلاتِ الطربِ صَفيرا وعزَفا ، وفى الأعلام خَفَقانًا وحركة ، وقوّى منْ كلّ أولئك جمالُها وما ترفل فيه من حلل وزينةٍ .

ودخلتْ مَقصورتَها التى أُعدتْ لها ، فجلستْ على سَريرِها الذهَبِى ، المفروشِ بالحريرِ والإستبرَقِ ، وقضَى الملكُ معها الليلةَ فى أهنإ حال ، وأهدأ بال . وشاء القدرُ أن تحملَ منهُ الليلة ، فزادَ الملك لها حُبا وإعزازا ، وودًّا وتـكريما .

وجاءها المخاضُ فى آخر التاسع من شهورِ حملِها ، فوضعته غلاما زكيًا ، فكانَ مَشْرِقَ سعادةٍ ، ومبعثَ حياةٍ خالدةٍ ، فى نفسِ أبيه ، وسماهُ تاجَ الملوك ، وعُنِيَ بكفالتِه جدّ العناية ، فلما أوْفى على سبع من عمره ، وكلَ إلى العلماء والحكماء أمرَ تعليمه وتثقيفه ، ولما حذقَ الخطّ والكتابة ، والأدبَ والحكمة ، وكلَه إلى أستاذٍ يعلمُه الفروسيّة ، فكان يخرُجُ به إلى الفلاة ، تحرُسُه ثُلّةٌ من الجنودِ الأشدّاء ، فيروضُه على أعمالِ الصيدِ والقنص ، وركوب الخيلِ ، والطعنِ والضرب ، حتّى اشتدّ ساعدُه ، وبرَعَ فى البُطولة ، وشغِفَ بها شغَفا عظيما ، وكانَ قد بلغَ من العمر ثمانى عشرة سنة وجعلَ يؤُمُّ المصايدَ والمقانِصَ كلّ يوم ، غيرَ مُشْفِقٍ عَلَى أبيهِ ، الذى يأْبَى عليه هذا الخروج ، مخافةَ أن يُصيبَه مكروه .

وذات يوم أمَرَ تاجُ الملوك خدمَه ورجالَه ، الذين يَصحبونه فى مَغْداه ومَراحِه ، أنْ يتزوّدوا بما يكفيهم عشرة أيام ، فلما حزَمُوا متاعَهم ساروا مُوغِلينَ فى البيداء أربعةَ أيام ، ثم نزلوا على مَرْجٍ بَسقَ دوْحُه ، واشتبكَ شجرُه وتفجّرتْ عيونُه ، وطابَ نسيمُه ، واتخذوا منْ قِبابِهم المضروبة سكنا ، ينسلخونَ منها للصيدِ والقنصِ ثم يعودون ، وفى بُكرةِ ليلةٍ من ليالى نزولهم ، رَأَوْا جماعةً قد حطُّوا بأمتِعتِهم ، فى ناحيةٍ من نواحى مَرْجِهم ، فبعثَ تاجُ الملوكِ إليهم منْ يتعرفهُم ، ويتبينُ مقصدَهُم ومأربَهم ، فقالوا إنا تجار وجئْنا ببضاعتِنا هذه ، إلى مدينةِ الملك شاه ، ومنها كثيرٌ لابنه تاجِ الملوك ، ولمّا أجهدَنا السّفَرُ نزلْنا لنستريحَ غيرَ خائفين ، لأننا فى حِمَى

الملكِ سليمان شاه ، الذى مَنْ أَوَى إليه سَلِم ، ومن لاذَ به أَمِن .

فلما جاءه الرسولُ بما عرف ، أَمرَ بإحضار التجار بضاعتهم لَديه ، فذهب الرسُولُ إليهم وكانَ لبقاً فقال : سيّدى الأمير تاج الملوك سليمان شاه يدعوكم لحضرته ، ليزدادَ أمنُكم ، ويأتنِس بكُم ، وتعرِضوا عليه بِضَاعَتكم ، ففرحوا وقالوا : ذلكَ حظُّنا السعيدُ أسرعَ فواتانا ، وخَفَّ لاستقبالنا ، وكانوا بَعدَ فترةٍ من الزمن بينَ يديه ، فعرضُوا بضاعتهم ، وأخذَ لنفسه منْها ما راقَه ، ونقدَهم ثمَنَه ، غيرَ أنه لحظَ شاباً من بينهم ، قرأَ فى وجْهِه قلقاً يحُوزُ فى نفسِه ، وحسرةً تتلظَّى فى صدره ، وأنه لم يعرِضْ مثلَ زملائه بضاعته ، فقال له تاجُ الملوك : لعلّ شيئاً فى نفْسِك ، حبَسكَ عنْ عرضِ بضاعتك ؟ ! فقال : ليس إلاّ ما أعلمُه ، من أنّها غيرُ صالحة ، فقال الأمير : سأنظر إليها بعينى لا بعينك ، وقد أرَى فيها غيرَ ما ترَى ، فعرضَها الشابّ قطعةً قطعَة ، وكان منها ثوبٌ من الحرير ، فسقطتْ منه خرقةٌ وهو يعرضُه ، فأسرعَ الشابُّ وخبأَها تحتَ فَخذِه ، فسأله الأمير : ما هذا الذى خبأتَه تحتَ فخِذِك ؟ فقال : ذلكَ ما ليسَ لكَ به حاجة ، فقال الأمير : رُبّما كان ذلكَ هو الذى أنْحلَ جسمَك ، وأحال لونَك ، وبَلبَلَ فكرك ، ولدَىّ عزمٌ مَشبوب ، لأُنفِّسَ عنكَ ما تقاسيه من خطوب ، ومن الخيْر ألاّ تخفِىَ أمرها وأمرَكَ عنّى ، فالمرءُ ضعيفٌ بنفسه ، قوىٌّ بأخيه .

وبسطَ الشاب الخرقة ، فإذا بها صورة غزالٍ من حرير مزخرفٍ

بالذهبِ فى ناحيَة ، وصورة غزالٍ فى ناحيةٍ أخرى ، من سندسٍ مزخرف بالفضة ، وفى رقبته طوقٌ من ذهبٍ ، وثلاثُ حبات من زبرْجَد ، فملكت الصورتان على تاج الملوكِ مشاعرَه ، وأقبلَ على الشابَ قائلا : أقصصْ قصصَك ، ولا تغادرْ منه صغيرةً ولا كبيرة ، فقال الشاب :

كان أبى من كبار التجار ، وكان له أخٌ ماتَ عن بنت قطعتْ من عمرِها ثلاثةَ أهلّةٍ ، وكانتْ بِدْعا فى الجمال وحسنِ الخلقَة ، فكفَلَها أبى ، وكان لم يُرزَقْ بولدٍ غيرى . واتفقَ هو وعمّى قبلَ موتهِ ، أن يزوجنِى من بنتِه هذه ، فربيتُ معها فى بيتِ أبى تربيةً عالية ، ولما بلغْنا الرشد ، أخذَ أبى فى إعدادِ ما يلزم لوليمةِ إبرام عقد زواجِى منها ، ودعا أصحابه من التجارِ والأعيان ، إلى حضورِ الوليمة ، عقبَ صلاةِ الجُمعة ، وكنتُ قد أخذت فى هذا اليوم إلى الحمام حلةً فاخرة ، لأحضرَ بها وليمة الزّواج ، فلما خرجتُ من الحمام ، تذكرْتُ صديقا لى ، فرغبْتُ أن أدْعُوَه ، وجعلتُ أبحثُ عَنه ، ولما شعرتُ بالتعب ، جلستُ أسترْوِحُ على مصْطَبة ، فى زقاقٍ لم أسلكْه مِنْ قبل ، وكانَ جسْمِى قد تفجّر عرقا ، فجعلتُ أجَففهُ بمنديل حتى ابتل وتشبع بالماء . وبينَما أنا جالسٌ على هذه الحال ، إذْ سقطَ علىّ منديلٌ من الحرير ، تشعُ منه رائحةٌ ذكيّة ، فأرسلتُ بصرى إلى مَهبطِ المنديل ، فإذا فتاةٌ مطلةٌ من نافذَة ، كأنها البدرُ المطِل من خلال السحُبِ المتقطعة ، فلما رأتنِى شاخِصَ البصرِ إليها ، وضعتْ إصبَعَها فى فِيها ثم أخرجتْه ، وقرنت الوُسْطى بالسَّبابة ، ووضعتْهما بين نهديْها ، ثم

أقفلت النافذة ، وغابتْ فى الحجرة ، فاستعرتْ فى قلبى نارٌ من الوَجْد والهيام ، ولبثْتُ أرتقبُ عودةَ الفتاةِ تطلُّ ثانية من النافذة ، حتّى توارت الشمسُ بالحجاب ، ولما استيأسْتُ قفلتُ راجعًا إلى بيتِ أبى ، وبينما أنا سائر فتحتُ المنديلَ الذى هوَى علىّ من النافذة ، فوجدتُ فيه ورقةً قد كُتبَ فيها : « القتلُ فى سِهامِ المِيْنِ إذا رنتْ ، والسكرُ بالرضابِ لا بالقَدح » ، فزادَ الوجدُ فى قلبى استعارا ، وذهبتُ إلى البيت أضطربُ اضطرابا ، فألفيتُ ابنةَ عمّى ، جالسةً تبكى ، فكفكفتُ من حزنِها ، وسألتُها عنْ وليمة الزواج وما تمّ فيها ، فقالت : جاءها رجالاتُ المدينةِ وأعيانُها ، فطعموا وشربُوا ، وانتظروا قُدومَك طويلا ، فلما استيأسُوا منْه خلصُوا نجِيّا ، وهم فى حيرةٍ من غيابك ، وقدْ غضِبَ والدُك ، وأقسم أن يرجئَ زواجى منكَ إلى العام المقْبل ، فهلْ أَستطيع أنْ أعرِفَ منكَ سببَ تأخّرك إلى هذا الوقت من الليل ، فلما أَخْبرها ، وقرأتْ ما فى الورقة ، سألتْه عما قالتْ أو أشارتْ ، فقال : لم تقلْ شيئا ، ولكنها وضعتْ إصبَعَها فى فمِها ثم أخرجتْه ، وضمت الوُسْطى إلى السبّابة ، ووضعتْهما بين نهديها ، ثم اختفت وأقفلت النافذة ، فهلْ أجدُ عندكِ معونةً على ما بُليتُ به من الهوى ؟ فقالت : لك عَينى ورُوحى وكل ما أملك ، فقال : وهلْ تعرفينَ ما ترمى إليه مِنْ إشاراتها ؟ فقالت : إنّها تقولُ بوضْع إصبعها فى فمها : إنى أعضّ على حبّك بالنواجذ ، وتقول بوضع إصبعيها بيْنَ نهديْها : تعالَ هُنا بعدَ يومين ، لأطفِئَ برؤيتِك لهيبَ الجوى ،



ما المنديلُ فسلامُ المُحبين ، وأما الورقةُ فما كتبَ فيها واضحٌ مبين ، ولو كنتُ أخرجُ من البيتِ لجمعتُ بينكما في أسرع وقت ، وأسبلتُ عليكما سِترَ الكِتمان ، ولبثتُ يومَيْنِ في حَضانةِ ابنةِ عمي ، تبعثُ فيّ الأملَ الباسم ، وتبشرني بوصالٍ جميل . ولما انقضى اليومانِ ألبستْني أحسنَ ما لديّ من الثياب ، وسرّحتنِي إلى فتاتي مُشيِّعاً بدُعائها وقلبِها ، فكنتُ بعد قليلٍ في المكانِ المعهود ، في الوقتِ الموعود ، وما كدت أستقرّ على المصطبة ، حتّى أشرقت النافذةُ بوجهِ الفتاة ، فبسَطتْ كفّها ، وحلّتْ بأصابعها الخمسِ صدرَها ، ثمّ اوّحتْ بمرآةٍ في يدها ، والتقمتْها الحجرة ، بعدَ أن أغلقت النافذَة ، فأصابنِي همٌّ من بعدِ همّ ، وقمت على عجل إلى ابنةِ عمي ، فاستقبلتْنِي باسمةً ضاحكةً قائلة : لعلكَ التقيْتَ بفتاتك ؟ ! فقلت : لا أزالُ في يأسٍ من اللقاء ، وحكيتُ مافعلتْه ، فقالت : لا تنفكُّ عالقةً بكَ ، ولا يزالُ هواها معكَ ؛ أمّا ضربها بالكفّ صدرَها فإنهُ إشارةٌ إلى أنْ تجيئَها بعدَ خمسةِ أيام ، وأما تلويحُها بالمرآة فمعناهُ أنْ تجلسَ أمام دكان الصباغ حتى يأتيكَ رسولُها ، فأيقنْتُ صِدق ابنةِ عمّي في تأويلها ، إذ كانَ في الزّقاقِ دكان لصباغ يهودِي ، وعكفتُ خمسة أيام مع ابْنة عمي وأنا في عذابٍ أليم ، من خوفِ الفشلِ والإخفاق ، وابنة عمي في حزنٍ عظيم منْ أجْلي ، ولما حان الموعد ، وكان يومَ السبت الذي تغلقُ فيه دكاكينُ اليهود ، ذهبتُ إلى دكانِ الصباغ ، فجلستُ أمامه حتى غربت الشمس ، ولم ألمحْ نافذةً فتِحتْ ، ولا رسولاً أتى ، فانقلبتُ إلى

البيت يائساً حزيناً ، غضبان ثائراً ، فاستقبلتني ابنة عمي بابتسامة مُشرقة ، وقالت : لِمَ لَمْ تبتْ مع فتاتك الليلة ؟ فدفعتُها بيدي في صدرها بقوّة ، فسقطتْ وخدش الجدار جبينها ، فعصبَتْ رأسها ، وأقبلتْ عليّ تُهدْهدُ منْ يأسي ، وتبشّرني بنيْل بُغيتي ، فأخبرتُها بما وجدتُ منْ إخلاف وفشل ، فقالت : لاتخفْ ولا تحزَنْ ، إنها تختبرُ حبكَ ، وتبتلي صبركَ وبلاءك ، فاذهبْ إليْها في الصباح ، وانظرْ ما تشيرُ به عليك ، فكنت وشروق الشمس على المصطبة ، شاخصاً ببصري إلى النافذة ، ولبثتُ بضع دقائق ، أطلّت الفتاةُ على أثرها من النافذة ضاحكة ، ثم غابتْ وعادت ومعها مرآة وكيس ، وأصيصٌ به زرعٌ أخضر ، وقنديلٌ مضيء ، فوضعت المرآة في الكيس وأحكمتْ رباط فمه ، وألقتهُ في الحجرة من خَلْفها ، ثم أرختْ شعرها على وجهها ، ووضعت القنديلَ على الأصيص لحظة ، ثم أقفلَت النافذة ، وولتْ مدبرَة ، فلويتُ وجهي إلى ابنة عمي ، التي كانتْ تتحرّق ألماً وغيرَة ، ولكنها كانتْ تخفي أمرها إشفاقاً عليّ ورحمة ، وأخبرتها بما كان من الفتاة هذه المرة ، فقالت : أبشر بنيْل المراد ؛ فقد أشارت بالمرآة والكيس أن تحضُر إليْها بعدَ غروب الشمس ، وعزّزتْ ذلك بإرخاء شعرها على وجهها ؛ وبأصيص الزرع إلى أنك إذاجئتَ فادخل البستانَ الذي وراء الزقاق ، وبالقنديل إلى أنك تؤمُّه ، وتجلسُ تحته حيثُ يضيء ، مرتقباً حضورها إليكَ .

ولما جاء الموعدُ أعطتْني ابنةُ عمي حبة مسك قائلة : اجعلْ هذه الحبة

فى فمك ، وقت اجتماعك بفتاتك ، ثم قلْ هـذه العبارة عند خروجك :
« كيف يصبرُ مَن برّحَ به الهوى ؟ ! » .

وفى الموعـدِ المضروبِ بإشارتِها كنتُ أمام البستان ، فألفيتُ بابه مفتوحا ، وما ولجْتُه حتى لاح لى ضوء قنديلٍ على بعد ، فركبتُ سَمْتى إليه ، فوجدت القنديلَ معلقا فى سماء قبةٍ فسيحةٍ مضروبة ، فيها مقعدٌ فاخر ، مفروشةٍ ببساطٍ حريرىّ مزخرف ، وفى وسطِ القبـة مائدةٌ عليها غطاء حريرى رقيق ، وبجانبها وعاء خمر ، جلس َفوقهُ كأسٌ من ذهب ، ولـكنّ المـكان فى سكون عَميق ، لا أسمعُ فيهِ رِكزا ، ولا أحسُّ أحداً ، فأخذت مكانى على هذا المقعدِ منتظراً فتاتى ، وجَعَلتْ ساعات الليل تتقاذفُني ، ولـكنّى لمْ أجِدْ أحداً ، وكانـ الجوعُ قد اشتدتْ وطأته بأمعائى ، فـكشفْتُ عن المـائدة غطاءها ، وطعمتُ وشربتُ ، ثم جلستُ أنتظِرُ ، فغلبنى النوم ، ولم يخلصْنِي منهُ إلا حرُّ الشمس ولهيبُها ، ووجدتنى على الأرض منْ غير فراش ، وألفيْتُ على بطنِي ملحاً وفحماً ، فنهضتُ قائما ، ورجعتُ إلىّ ابنةِ عمى خائبا ، وسمعتُها تقول : حرامٌ علىّ طيبُ العَيش من غير ابن عمى ، وياليتَ قلبه مثلُ قلْبي .

ولما رأتـنِي أقبلتْ علىّ مُسرعة ، وقالت : ما هذه حالُ منْ حَظِىَ بحَبيبه ، فماذا جَرى ؟ فأنبأتُها ما حصل ، فابتَسَمتْ فى غيْظ المحْنق الخائف ، وقالت : قوّضَ اللهُ حِصْنَ من قوضَتْ حِصنَك ، ووَقَاكَ شرَّ كيدِ هـذه الفتاة ، فإنّى الآن فى خوفٍ عليك منْها ، فقدْ بدتْ لى أنها على علمٍ بالعشقِ

وأسراره ، وقد تكونُ عَميقةَ المِحال ، فينالكَ منها عَظيم النّكال ، وما دمتَ لا تودُّ الانفِلات مِن يَدِها ، فاللهُ يحفظُك ويعصمُكَ منها ، وسأبدى لك سرّ ما فعلتْه بك ، أما الملحُ فإيماءةٌ منها إلى أنكَ فى حُبكَ كالطعامِ الذى نقصَ ملحُه ، إذْ غلبَكَ النومُ وهو على العاشقين حَرام ، وأما الفحمُ فإنها تقولُ به : سوّد اللهُ وجهكَ ، إذ كنتَ كاذباً فى محبتك وجَعلته وسيلةً إلى أنْ تملأ بطنَك ، وتُسلِمَ إلى النعاسِ قلبَك ، فنزَلَ قولُها من نفسِى منزلَ القبول ، وقلتُ فى ذِلة ؛ وماذا أفعلُ الآنَ يا ابنة عمى ؟ — وكانت تحبّنِى محبة صادقة — فقالت : إنّ أحبّ شيء إلىّ أنْ أرضيَك ، وإن بذلتُ فى ذلكَ مُهجتِى ، فاستمِعْ لما أقول : إذا جاءت الليلةُ الآتيةُ ، فاذهبْ إلى مكانكَ المعهودِ من بستانها ، واحذَرْ أن تأكل شيئاً من مائدتِها ، حتى لا يقهرَكَ نومٌ أو نُعاس ، فقد رأيتَ أنه يعوقُك عن بلوغ مأرَبِك ، ولا تنْسَ أن تبلغَها عنى العبارة السابقة « كيف يصبرُ من برِحَ به الهوى ؟ » . فقلتُ : لنْ أنسَى هذه المرة .

وجلستُ فى مقعدى تحتَ القبةِ المضروبة ، غير أنى أكلتُ من المائدةِ الموضُوعة ، وأغرتنِى لذةُ الطعام ، كما دفعتنِى حرقةُ الجوع ، إلى العكوف على المائدةِ حتى شبعت ، فوجدَ النومُ سبيلَه إلى أجفانى ، ولم أجدْ حِيلة أدفعُه بها عنى ، حتى أيقظتنِى شمسُ الضّحا ، فألفيتُ على بطنِى قطعةً من سَعفِ النخل ، ونواةَ تمرة ، وبذرةَ خروب ، كما وجدتُ القبةَ خاليةً من كل شيء فيها ، فأسرعت إلى ابنة عمى ، وَبلغتها ما كانَ

فى تلك الليلة، وارتقبْتُ تفسيرَ رموزها، فقالت : ألم أحذّرْكَ الأكلَ حتى لا تنام ؟ ! أما القطمةُ من سَعفِ النخل فإنها إشارةٌ إلى حضُور جسمِكَ، وغيابِ قلبِكَ ، وأما النواةُ فتلويحٌ بأن قلبَك خالٍ من الهوى ، وأما بذرة الخرّوبِ فتلميحٌ إلى أن المحب ينبغى أن يكونَ مسلوب الفؤاد ، وقد أضعتَ مظاهرَ الحبِّ الصادقِ ، بأكلِك ونومِكَ ، فإن أردت الاجتماعَ بها فاحذَرْ أن يأخذَ الكَرى بمعاقدِ أجفانِك وإلا ألقيتَ بنفسِكَ إلى شرٍّ وبيل قد لا أستطيعُ دفعَهُ ، ويخيّلُ إلىّ أنها قدْ فرغَتْ من رموزِها ، ولم يبق لديْها إلا أنْ تكيدَ لكَ كيدًا ، بعدَ هذا الإمهالِ الطويل ، فقلت : ولنْ تكتحِلَ بالنومِ عيْنِى ، حتى يلجَ الجملُ فى سَمِّ الخِياط ، وسأبلغُها رسالتك .

وفى الليلة التاليةِ ودعتُها وانصرفتُ إلى مكانى من البُستانِ ، عاقِدًا عزمِى على السّهرِ حتى مطلَعِ الفجرِ ، ولبثتُ أنتظِرُ حتى الهزيع الأخير من الليْلِ ، فإذا الفتاة قادمة تخطرُ وسط عشْرِ جوارٍ كأنها البدرُ ، عليْها حلةٌ من الحريرِ الرقيقِ المطرزِ بالذهب ، فلمّا جلستْ بجوارى ضحِكتْ وقالتْ : الآنَ أصبحتَ ذا وَجدٍ وهوى ، لأن النومَ لا يعرفُ سبيلا إلى قلوب المحبين ، ثم أشارتْ بطرفِها إلى الجوارى فقفلْنَ راجعات ، ثم أقبلتْ علىّ قائلة : لقدْ رأيْتُك فأحبَبْتُك ، وأوَدّ أن تأتِىَ كل ليلةٍ ، نقطَفُها معًا فى أنسٍ ولذة ، فقلتُ أخشى أن يغوِيَنا الشيطانُ فأعصى الله وأجمعَ بينَ القُرطِ والخلخال ، فقالت : وذلكَ ما أردته ، وإلّا سكنتَ

قبرك فى هذا البستان تلك الليلة ، إنّ الحبّ يُعمِى ويُصم ، وما دمتَ تحبّني فلنْ يحولَ بينَك وبينَ الاستمتاعِ بحبيبك أيُّ حائلٍ من دُنيا ودينٍ ، وكان جمالُها مِلءَ العينِ والدّم ، وفتنةَ القلبِ . فما أجدَى مَعِي برهانُ يوسف عليه السلام ، ولبثتُ معها بقيةَ ليلةٍ ، طلقةِ الحرّية ، ثم ودّعتها فى الصباح ، وأنساني غرامى بها ، أنْ أبلغَها رسالة ابنة عمى ، وقبل أن أغادرَ بُستانها ، أعطتنى هـذه الخرقةَ قائلة : إنّها منْ صنعِ أختِي نور الهدى ، أمنحُك إياها لتذكرَنى بها ، وركبتُ السبيلَ إلى ابنة عمى ، التى تقاسِى آلامَ حُبى ، وتحرصُ على رضائى ، واتباعِ رغبتِي ، وأخبرتُها ما جَرى ، فقالت : لا أزال أحبُّ رضاك ، وأدعُو اللهَ أن يحفظَكَ ويُنجيك ، وطلبتْ إلىّ أنْ أهبَ لها هذه الخرقة ، فمنحتُها إياها ، ولما حان الموعدُ قالت : اذهبْ إلى فتاتك محوطاً برعايةِ الله وحفظِه ، ولا تنسَ أن تتلوَ عليها رسالتى الأولى ، فوعدتُها أن أنفّذَ رَغْبتَها .

ولما دخلتُ البستانَ وجدتُ الفتاةَ فى انتظارى ، فقضيْنا هـذه الليْلة ، على ما قضينا أختَها السابقة ، وفى الصباحِ ألقيتُ فى مسمَعِها رسالة ابنةِ عمى ، « كيف يصبر من برّحَ به الهوى ؟ ! » فلما سمعتها سحّتْ عيناها وقالت : « يدارى الهوَى ثم يكتُمُ السّر ويصبر » .

ورجعتُ فى زِياطٍ من عواطفى الثائرة ، ونزعاتى الفاسـدة ، لمْ أستمعْ فيه صوتا لضميرى ، ودخلتُ بيتى فوجدْته فى سكون المقبرة ، ووجدتُ ابنة عمى قد حبسها المرضُ فى فراشها ، وأُمّى جالسةٌ عند رأسِها ، تبكى

من لؤمِ الزمان ، وظُلمِ الإنسان ، فلما دخلتُ عليها قالت أمى : تبًّا لك ! كيف تتبرّمُ بابنةِ عمك ، وتتأفّفُ منْ ملازمتها ، مبتغيا نَشْوَةَ نفسك فى مَزالقِ الهوى ، ومَفاتنِ الشهوة ؟ ! ! ولكنّ ابنة عمى التفتتْ إلىّ قائلة : هلْ بلغتَها رسالتى ؟ فقلت : نعمْ ، وأجابتنى باكية قائلة : يدارى الهوى ثم يكتم السر ويصبر ، فبكت ابنة عمى وقالت : إذا ذهبتَ إليها فقُلْ : كتم السرّ وحاول الصبرَ الجميل فلم يَسْتطع .

فلما قضيتُ ليلة أخرى فى لهوٍ بهذه الفتاة ، وأبلغتها فى الصباح رسالة ابنة عمى ، تقاطرَ الدمعُ من عَيْنَيْها ، وقالت : إن لمْ يستطعْ صبرا فالموت سبيله ، ثم نشطتُ ساعيا إلى ابنة عمى ، والمرضُ لا يزالُ يرمض جوانحها وأمى لا تنفكُّ جالسةً بجوارها ، فقرأتُ عليها ماقالتْ فتاتى ، فحركت ابنة عمى لسانها وقالت : سمعْنا وأطعْنا ، وسَلامٌ على الصابرِ يومَ يُبعثُ حيّا .

وذهبتُ فى موعِدى ، فوجدتُ الفتاة فى انتظارى ، فلما كانَ الصباح قرأت عليها ما قالت ابنة عمى ، فصَكّتْ صدرها بيدِها وقالت فى ألمٍ مُمض ، وأسفٍ لاذع : لقدْ ماتت ! ! أتعْرفُ منْ حملتْكَ هذه الرسالة ؟ فقلتُ : إنها ابنةُ عمّى ، فقالت : كذبتَ وافتريْتَ ، لو كانتْ كما قلتَ لحملتَ لها من الحبِّ ما حملتْهُ لكَ ، ولقدْ قتلتَها بصدِّكَ وإعراضِك ، ولوْ علمتُ حالها من قبلُ ، ما مهدْتُ لكَ سبيلَ الاتصالِ بى ، فقلت : إنها ابنة عمى ، فنيَتْ فى شخصِى ، وحرصَتْ على رَاحتِى ورِضائى ، وهى التى

كانتْ تفسّرُ ألغازك لى ، وما وصلتُ إليك إلا بمشورتها وتدبيرها ، فقالت : قتلك الله كما قتلتَها ، ثم غادرتها وأنا شاردُ اللبّ ، مُضطربُ الخطا ، بَرِمٌ بالحياة ، فألفيتُ البيتَ غارقاً فى لجةٍ من حزنٍ أليم ، وعلمت أنها أسلمتْ روحها إلى بارئها ، وشيّعها أبى إلى قبرها ، ولبثنا فى المقبرة عندها ثلاثة أيام ، فى حَسرة شاملةٍ : وحزن مُقيم .

ولما رجعنا إلى البيتِ سألتنِى أمى عما كنتُ أفعله بها ، حتى قَضيتُ عليها ، فقدْ حاولتْ أن تعرف من ابنة عمى شيئاً من حياتى معهَا فما أُفْضتْ إليها بقليلٍ ولا كثير ، ولـكنها قالت : عفا الله عن ابْنِـكِ ، ولا جازاه بفعلهِ ، وأخبريه أن يقول للفتاةِ التى يتردّدُ عليها : الوفاء كرم ، والغدرُ لؤم ، قالت أمى : ثم ناولتْنِى شيئاً لك وقالت : لا تعطيه إياهُ حتى يبكىَ على حياتى مرَّ البكاء .

ولقـد كنت لا أزالُ فى غَمرة الهوى ، ونشوة الفرح بفتاتى ، وما أقبلت الليلة الرابعةُ حتى كنتُ عِندها ، فألفيتُها تتقلبُ على جمرٍ من الصبر والانتظار ، مرتقبةً عودَتى ، فما رأتنِى حتى نهضَت سائلة : كيفَ حالُ ابنة عمك ؟ فقلتُ : لحقَتْ بربِّها وشُغِلْنا هذه المدة بتشييعها ، وتقبُّل العزاء فيها ، وقد جئتُ إليك بعد أنْ نفضْنا أيدينا من ترابها ، فقالتْ : رحمَها الله ، فقد كنتَ سبباً فى موتها ، وأخشى أن ينتقِمَ الله منك لها ، فقلت : لقدْ صفحتْ عنِّى ، ووهبتْ لى دمَها وأوصَتْنى أن أقول لك ، إذا ما جئتُ إليْكِ : الوفاء كرم ، والغدرُ لُؤم ، فقالت . رحمها الله ، فقد

خلصتُكَ منْ شرّى حيّة وميّتة ، فعجِبْتُ أن سمعتُ منها ذلكَ ، وقلت : وهلْ كنتُ أتوقعُ منكِ شرا بعد هذه المودّة ؟ فقالت : النساء ناقصاتُ عقلٍ ودين ، إلا منْ عصَم اللهُ ، وكيدهنَّ إلى ذلكَ عظيم ، وإنى أحذرُكَ ألا تتصلَ بامرأةٍ غيرى ، فقدْ تقعُ فى حبائلِ ماكرة ، ويحلُّ بكَ على يديْها النكالُ والوبال ، ثم أخذتْ علىّ المواثيق والعهودَ ألا أنقطِعَ عنها ، ولبثتُ معها على أهنأ بال ، وأسعدِ حالٍ ، اثنى عشرَ هلالا .

وذات يوم خرجتُ من حمامِ المدينة ، أرفلُ فى حلتى القشيبَة ، وبينما أنا سائرٌ إلى منزلى ، إذ اعترضتْ سبيلى عجوزٌ تمشى على ثلاثٍ من ساقين مرتعشتين ، وعصا غليظة ، قد انحنتْ عليْها انحناء القوس ، فنادتنى فى صوتٍ متهدج ، فأسرعتُ إليها سائلا : نعمْ يا سيدتى ، أَلكِ حاجةٌ ؟ فناولتنى كتابا قائلة : اقرأ لِى هذا الكتابَ ، عافاكَ اللهُ ونجاك ، فقرأته عليْها ، فإذا هوَ ينبئُ عن وجودِ ابنٍ لها فى مدينةٍ سحيقةٍ ، وهوَ فى صحةٍ وعافيةٍ ، ويعِدُها بالحضورِ إليْها قريبا ، ثم ناولتُها الكتاب ، وانتحيْتُ ناحيةً ، لأقضىَ لِى حاجةً ، ولما انتهيتُ منها ، رأيتُ العجوزَ مقبلةً علىّ مرةً ثانية ، ترجونى أنْ أذهبَ معَها إلى باب منزلٍ — وأشارتْ إليه — لأقرأَ الكتابَ ، بحيثُ تسمعه بنتُها ، حتى تستَوْثِقَ من وجودِ أخيها ، الذى غابَ عنها عشرَ سنين ، منقطعة أخباره ، حتى يئِسَتْ من لقائه ، فذهبتُ معها ، ووقفتُ أمام الباب ، وأخذتُ أقرأ الكتابَ ، وبينما أنا أقرؤُه ، إذْ دفعتْنى العجوزُ بقُوة ، فدخلتُ المنزلَ ، ودَخلتْ هى منْ خلفى على

عجل ، وأحكمت إغلاقَ بابه ، فرأيتُني أمامَ فتاةٍ ناهد ، تتألقُ وضاءةً وجمالا ، فضحكتْ فى وجهى ، وأمسكتْ بيدها يدِى ، فأحسستُها أنعمَ من الحرير ، وألينَ من النسيم ، فرأتنى خدرٌ وحيرَة ، فابتدرتنى قائلة : الحمد للهِ الذى جاءنِي بكَ ، فقدْ كنتُ أخشَى أنْ يصيبَك شرٌّ مِنْ بنت الدليلةِ المحتالة ، التي لبثْتَ فى صُحبتها سنةً أو تزيد ، وقدْ أتعبتنى فى الحصول عليك ، والاحتيالِ فى اختطافِكَ من يَدِها ، إشفاقا عليك منِّى ومكرمة ، فإنها لم تتركْ شابا إلا صاحبتْه ، حتى تُشْبِعَ نَهم شهوَتها ، ثمّ تَهْصِرُ غُصنَ حياته ، وتبحثُ عنْ آخرَ تنفذُ فيه نهجَها ، وشِرْعة هواها ، وقَدْ حانَ الوقتُ الذى تَنتَهى فيه حياتُك معها ، فاحمَدِ اللهَ الآنَ على نجاتِكَ منها ، واحمدْ لابنةِ عمكَ فَضْلَها ومعروفَها ، وقد حفرْتَ بيدِك قبرَها ، وكانت لك أمنعَ وقاية فى مَحْياها ومماتها ، ولولاها لكنتَ ترابا ، رلقد أردْتُك لنَفسي ؛ على سنةِ الله ورسُوله ، لتحْيي نفسا بنفسٍ ، وتردَّ نعمةً بنعمة ، فقدْ شُغِفْتُ بكَ حُبًّا ، ولنْ أكلفَكَ شيئًا من شئونِ المعيشَةِ ، ولا أبتغى منك إلا ما تبتغيه زوجٌ صالحةٌ ؛ مِنْ وَلدٍ يعبُدُ اللهَ ، وينفَعُ عباده ، فقلت فى نفسِي : إن الحسناتِ يُذهِبْنَ السّيئاتِ ، والحمدُ للهِ الذى بدّلنى بحياةٍ عابثةٍ خائنة ، حياةً صالحةً بريئة ، ثم نظرت إليها قائلا : ذلك فضلٌ ساقه اللهُ لى ، لأكفّرَ عن خطيئتى ، وأتوب إليه متابا ، فقدْ أضَعتُ من عُمْرِى مدة غيرَ قصيرة ، فى مجونٍ ولهوٍ لا يليقانِ برجلٍ يؤمن بالله ورسولِه ، فأحضرت المأذون والشّهودَ ، وارتبطْنا برباط الزوجية ؛

وقضيتُ معها ليلةً ساهرةً ناعمة ، كلها لذةٌ ومُتعة ، ولما أردتُ الخروج في الصباحِ قالت : إنَّ بابَ هذا المنزلِ لا يفتَحُ كل عام إلا مرةً واحدة ؛ وأمامكَ اثنا عشرَ شهرا حتى يفتَحَ المرة التالية ، وهُنا ما نحتاجُ إليه من زادٍ وماء ولباس ، فلم أخرج ولبثتُ معها سنةً كاملة ، رزقتُ فيها بغلام منها ، ولما كان وقت العشاء فتِحَ البابُ ، فهممْتُ بالخروجِ فقالت : عَلَى أن تعودَ الليلة ، وأخذتْ عليَّ العهودَ والمواثيق بذلك ، ثمّ برحتُه مسرِعا إلى البستانِ ، فلمّا وجدتُ بابه مَفتوحا ، شُغلتُ بأمرِه ، وظننتُ أنْ قد تغيَّرَ وضعُه ، وتبددَ شملُه ، إذْ لم يكنْ مُسْتساغا عندي أن تلبثَ الفتاةُ مرتقبةً عودتي إليها سنة كاملة ، فأردتُ أنْ أتبيَّن الأمرَ قبل أن أرجع إلى أُمِّي وأبي ، ودخلتُ البستان ، فأدهشَنِي أني وجدتُ الفتاةَ جالسة ، وقد أسندَتْ رأسَها إلى يديْها ، وحالَ لونُها ، ونحلَ جسمُها ، فلما رأتْني فرحتْ ، وهبّتْ واقفة ، حامدة لله سلامتي ، فقلت : كيفَ عرفت أنّي قادمٌ إليك الليلة ؟ فقالتْ : لا أدري شيئًا عن قدومك الليلة ، ولكنِّي عَلَى هذه الحال سنةً كاملة ، ولعلَّ خيرا غيْبتُك عني هذه المدةَ المديدة ، فأفضيْتُ إليها بكلّ شيء ، وعرفتْ مني أنّي عائد إلى زوجَتي الليلة ، فاغبرّ وجهُها ، وحدقتْ ببصرها ، وقالتْ : لا يصلحُ لي من كان له زوجةٌ وولَد ، والآن قدْ نفضتُ منكَ يدي ، وسأُجرّعُ زوجَك الماكرة ، كأسا مريرة ، من الحسرة عليكَ ، والحزنِ لفقدكَ ، وسأُلحقُك الليلةَ بابنةِ عمّكَ ، التي وَقَتْكَ في حياتها ، فهي في آخرتها أولَى بك منِّي

ومن زوجك ، فقلت : ألا تذكرين وصيتها ، لتكرميني بعد مماتها ، إذ قالت : الوفاء كرم ، والغدر لؤم ؟! فقالت : رحمها الله ، ومن أجلها سأبقي على حياتك ، على أن أجعلك غير صالح لامرأة ، وصاحت فجاءها عشر من الجوارى أمسكنني ، حتى قطعت مجرى البول منى ، ووضعت مكان القطع ذرورا يحبس الدم ، ويمنعه أن يسيل ، وأنا أستغيث بها باكيا ، ثم ألقت بي أمام البستان طريدا منبوذاً ، فأنستني النجاة بنفسي ما حل بي من تلك المصيبة الخالدة ، وذهبت في التوّ إلى زوجي ، وأنا مبهور النفس خائر القوى ، فارتاعت لمقدمي على هذه الحال ، وجلست بجانبي ، تتعرف ما دهاني ، فعلمت مني كل ما فعلته بنت الدليلة المحتالة ، وكشفت عن موضع القطع مني ، ولما استوثقت من صدقي ، أمهلتني حتى غرقت في نومي ، ولم أدر ما أضمرته في نفسها من خير أو شر لي ، ولكني صحوت بعد مطلع الفجر ، فوجدتني مُلقى على الأرض أمام بيتها ، فعلمت أنها نبذتني نبذ النواة ، بعد أن بتر مني عضو النسل وبقاء النوع ، فلم أجد وسيلة إلا أن ألوذ ببيتي ، وأرتمي في أحضان أبي وأمي ، عائذا بحنانهما الذي لا تزيده الحوادث إلا قوة وبسطة .

وجدت أمي غارقة في دموعها ، تظللها حسرات من آلامها ، لغيبتي غيبة مجهولة المرجع والمصير ، فألقيت بنفسي بين يديها ، فما كادت تفرح بأوبتي ، حتى اسودّ وجهها ، أسفا على ما أنا فيه من تغير حال وسوء منقلب ، وقامت لساعتها فأحضرت ما لديها من طعام وشراب ،

ونشطتْ لمؤاساتي، والحفاوةِ بِقدمِي، حتى طعمتُ وشربْت، ثم جلستْ تسألني عنْ حياتِي مدة غيْبتِي، فلم أترك شيئاً سرّنِي أو أحزنني إلا أخبرتها به. فقالتْ: ذلك جزاء ابنة عمك، التي اشترتْ رضاكَ وراحتك بحياتها، فقلت. رحمَها اللهُ، فقد كنتُ أحبَّ إليها منْ نفْسِها، وأرجُو من اللهِ أن يغفرَ لى خَطيئَتى، ويتقبّلَ توبتى، وبعدَ سكتةٍ قصيرة قلت: عسى أن يكون أبي فى خير وعافية؟!! فقالتْ، منذُ عشرةِ أيامٍ هاجر من دنياهُ إلى آخرتِه، فَسَبحْتُ فى بحرٍ من الهموم، لا أَدْرى لهُ مَدّى، أسفا على أَبِي وابنةِ عمّى، ثم قالت أُمى: جاء حينُ إعطائكَ وديعةَ ابنة عمكَ لك، وناولتنى هذه الخرقة، فوجدتُ فيها وصيةً لِي من ابنة عمى تقول: إذا أصابكَ الضرُّ من بنتِ الدليلةِ المحتالة فاقطعْ صلتكَ بالنساء، ولا تَسْكنْ إليها ولا إلى غيرها واتخذِ الصبرَ لكَ جُنّة، والحمد للهِ الذى جعلَ وفاتى قبلَ يومكَ، حتى لا أتجرَّعَ كأسَ الحزنِ لفقدِك، واحتفِظْ بهذِه الخرقة، واحذرْ أن تقتربَ من صاحبتِها، أو من إحدى النساء غيرها، واعلَمْ أن صاحبة هذه الخرقةِ دنيا بنتُ ملكِ جزائرِ الكافور، وهى تصنعُ كلّ سنةٍ واحدةً منها، ثم ترسلُها إلى الأقطارِ ليشيع ذكرها، فلما وقعَتْ فى يدِ بنتِ الدليلةِ المحتالة ادعتْ كاذبةً أنها لأختها، لتستهْوِيَ بها مَنْ تشاء من الفِتيان، ثم لبثتُ متلفّعا بِرداء الحزنِ والهمّ اثنى عشرَ شهرا، فرأتْ أمّى تجارا منْ مدينتى، يتجهزونَ للسفرِ ببضائعهم، فأشارتْ علىّ أن أسافرَ ببضاعتى معهم، عسى أن ينفسَ عنّى طوافِى بالبلادِ، ما ألمّ بى من

مكروهٍ وضَيْر ، وسرتُ مع صَحْبِي ببضائعنا ، تدفعنا مدينة إلى مدينة ، حتى كنّا بينَ يديْك ، فقال تاجُ الملوك : يخيَّلُ إلىّ أنَّ ما أصابَكَ لا تحتملُه الجبال ، ولكنّى سائِلُكَ عن شىء ، فقلت : سَلْ ما شِئْتَ ، فقال : هلْ تعرف شيئا عن السيدة دنيا بنتِ ملكِ جزائرِ الكافور ، وصاحِبَةِ هذه الخرقةِ ؟ فقلت : بلَغَنِي ممنْ رآها رأىَ العين أنها مُنِحَتْ من جمالِ الخلقة ما لم تُمنَحْهُ أُختٌ لها ، ولو أنى لم أفقِدْ مَزِيَّةَ الرجالِ ما عاقنى عن الوصول إليها عائق ، وإن فنيتُ فى سبيلها .

وشُغِفَ تاجُ الملوكِ حبّا ، بابنة الملكِ « دنيا » ، وحلتْ من نفسِهِ مَحلًّا عظيما ، فأخذنِي إلى مدينته ، وأودَعَنى داراً منْ دُوره ، أُقيمُ فى ظلالٍ وارفة ، من كنفِهِ ورعايته ؛ ثمَّ انصرفَ إلى قصرِه ، وقلبُهُ فى شغلٍ بالسيدة دنيا ، وكيفَ يحصلُ عليها ، وبرَّحَ به الوجْدُ والحنينُ ، حتى تغيَّرَ لونُه ؛ وهزلَ بدنُه ، فسألهُ والدُه عمّا يشغلُه ، حتّى بَرَى جسْمَه ، فأخبرَه بحبّه دنيا ابنة ملكِ جزائر الكافور ، فقالَ والدُه : إنّها بنتُ ملكٍ ، وبلادُه فى مكانٍ سَحيقٍ عنا ، ولا نستطيعُ الوصولَ إليْها إلا بشقِّ الأنفُسِ . وأرَى أن تدخلَ قصرَ والدِكَ ، فإنكَ واجدٌ فيهِ خمسمائةِ جارية ، كأنهنَّ الحورُ الحسانُ ، فاخترْ لنفسِك منهنَّ منْ تشاء . وإلا فاطلبْ بنتا غير دُنيا من بناتِ الملوكِ ، فقال تاجُ الملوكِ : لا أُريدُ سواها ، والموتُ خيرٌ من الحياةِ بدونها ، فقال والدُه : ما دُمتَ مُصرًّا عليْها فأمْهلنى رُوَيْدًا ، حتى أُرْسلَ فى طلبِها ؛ ولعلّها تكونُ من حَظِّكَ .

ثم أحضر الملكُ الشابّ الذى أحضَرَ الخرقة ، وكانَ يسمى عَزِيزاً وسأله : هل تعرف الطريقَ إلى مدينة السيدة دنيا ؟ فقال : نعم ، فبعثَه هو ووزيرَه إلى أبيها ملك جزائر الكافور ، ومَعهما من الهدايا الفاخرةِ ما يليقُ بتلك الوفادة ، ومن الرجالِ والخدمِ ما يؤنسهما ويقومُ بخدمتهما وقطعوا فى السفرِ الأيامَ والليالىَ ، حتى أوفَوْا على جزائر الكافور ، فألقوا على شاطىء نهرٍ عَصا رحيلِهم ، وأوفدَ الوزيرُ من عندِه رسُولاً إلى الملكِ يخبره بقدومهم ، فاستبْشَرَ الملكُ بهذا القدومِ الميمونِ ، وبعَثَ مع الرسُولِ الحجّابَ والأمراء ، يستقبلونَ الوزيرَ ومَن معه ، ويصحبُونَهمْ إلى مَليكِهم ، فى حفاوةٍ وتكريم .

وجاءوا الملكَ ، وقدَّموا له الهدايا ، ومكثوا فى ضيافتِه أربعةَ أيام ، يتقلبونَ على فِرَاشٍ من كَرَمِ الملكِ وفضلِه العظيم .

وفى اليومِ الخامِس بلَّغَ الوزيرُ رسالتَه ، فأطرَقَ الملكُ مَلِيًّا يفكّر فى أمرِه ، لأنّهُ يعلمُ زُهْدَ ابنتِه فى الزواج ، وبُغْضَها إياه ، ثم أسْعَفَتْه قريحتُه ، فأرسَل أحدَ حجابه إلى ابنته ، يستشيرُها فيما جاءَ به وزيرُ الملكِ سليمان شاه ، فما ألقَى عليْها رسولُ أبيها هذا النَّبأَ ، حتى غضِبتْ غَضبةً عَنِيفة ، وهَمّتْ به لتقتُلَه ، ولكنَّها عَفَّتْ عن ظُلْمِ الرسُولِ وإهانتِه ، وحملتْهُ رسالتها إلى أبيها قائلة : لئِنْ أكرَهنى أبى على الزواجِ فسأذيق زوجِي الموتَةَ الكبْرَى وأتبعُها بنكبَةٍ فى نَفْسى ، لا تجعلنى حيةً أسْعَى ، فأسرع الرسولُ إلى الملكِ وبَلغَه الرسالةَ ، وما حاق به عِندَها من

خُطورة ، فقال الملك للوزير : لتَشْهَد أمامَ ملِكِكَ بما علمتَ ورأيْتَ ، ولتُبَلِّغْهُ أنِّى فرِحٌ بهذا الزواج ، ولكنَّ ابنَتى صادفة عنه ، وفى ثورةٍ خطيرةٍ ، ولا أدرى لذلك علّة ، فشكرَ لهُ الوزيرجميلَ لقائه ، وحُسنَ رأيه ، وذهب إلى الملكِ سليمان شاه ، وأخبره بكلٍّ ما رأى وعَلِم ، فأحضر ابنَه تاجَ الملوك ، وشرحَ لهُ أمْر السيدة دنيا عَلَى حَقيقته ، وخشى أن يُصِرّ على الاستمساكِ بها فتكونَ الطريق إلى شِقْوته ؛ فقال تاج الملوك : دَعْني أعالج أمر زواجى بها بنفسى ؛ ولَنْ أصدِفَ عنهُ بأيةِ حال ولو كانَ فيه حَتْفِى ، فقال أبوه : وما دُمْتَ مُتشبثا بها فليكنْ فى صحبتكَ الوزيرُ وعَزيز ، فإنى لا آمنُ عَليكَ أن ترحَلَ إليها وحدَكَ ، فقال تاج الملوك : هذا حَسنٌ ، وستذهبُ إليْها فى هيئةِ تجارٍ ، يؤمونَ المدُنَ ببَضائعهم ، وأمَدَّ الملِكُ ابنَه بالمال الوفير ، ليكونَ رِدْءًا له فى رِحْلتِه ، ورزَمُوا بضاعتَهم وساروا بها حتى كانوا بمدينة السيدةِ دنيا ، فدهشَ تجّارُها لما رأوا من جمالِ تاجِ الملوك ، وَوضاءةِ خَلقِه ، ودلُّوهُم على شيخ سُوق المدينة فذهبَ الوزيرُ وتاجُ الملوكِ وعزيز إليه ، فأحْسنَ استقبالهم ، وأكرمَ قُدومَهم ، وسألهمْ عنْ حاجتِهم ، فقالَ الوزير : إنى رجلٌ قطعتُ من العمر معظمَه ، ومعى هذانِ الغُلامان نؤمُّ المدنَ ببضاعتنا ، فنقيمُ سنةً فى كلٍّ منها ، نمارسُ التجارةَ ، ونتزوّدُ من أحوالِ الناس ، ثم نغادرها إلى غيرها ، وقد جئْنا مدينتكم هذه ، نَبغِى المقامَ فيها سنة ، ونرجُو منكَ أن تُهيِّئَ لنا دكانا نعرض فيه بضاعتَنا ، المدةَ التى نقيمها بينكم ، فقال الشيخ : رجاء

مقبولٌ ، وأمرٌ مطاعٌ ، وكان قد فرِحَ بالغلامين ، وملأَ حبُّهما قلبَه ، وجعلَ يختلفُ إليهما فى دكانِهما ومنزلهما من حينٍ إلى حين ، وشاعَ أمرُهم فى المدينة ، وعُرِفوا بحُسْنِ السيرَة ، وجودَةِ البضاعة ، وأتَى إليهم الناسُ من كل حَدَب ، ليشهدُوا بضاعتَهم ، ويبْتاعوا لأنفسهم منها ما يُريدون .

وبينما عجوزٌ سائرةٌ وخَلفها جاريتان ، إذْ لمحتْ تاجَ الملوكِ فى دكانه ، فحبسَها فى مكانِها جمالُه ، وجعلتْ تقول : سبحانَ منْ جعلكَ فتنةً للعالمين ، ومالتْ إليه وسلمَتْ ، فردّ السلامَ هشًّا بشًّا ، وأجلسَها بجواره ؛ وَعلمتْ منه أنه غريبٌ ، نزحَ إلى هذه المدينةِ ، للتجارةِ والمعرفةِ وإفادَةِ الخِبْرَة ، فقالت : أشرقتْ بكَ المدينة ، ونَزَلتَ فيها على الرحْبِ والسعة ؛ وماذا عندَكَ من القُماش ، أرِنِى أجْوَدَ ما لدَيك ، فقال : لدَىَّ كثيرٌ من قماشٍ يتمايزُ جَودَةً وقيمة ، وفيه ما يَصْلح الملوكِ وبناتِهم ، فلِمَنْ تُريدين القماشَ حتى أعرضَ عليكِ ما يليقُ به ؟ فقالت : أريدُ قماشاً يصلُحُ للسيدة دنيا بنت ملك جزائر الكافور ، فانقلبتْ حاله ، إلى بشْرٍ يتهلَّلُ فى وجْهِه ، وأملٍ باسم يتألقُ فى ثغره ، ويَحيا فى جسْمِه ودَمِه ، وقال لعزيز : هاتِ أنفَسَ ما عندكَ من القماش ، فأحضرَ قِطَعاً جيدة لا تجدُها عندْ تاجرٍ آخر ، واختارت منها ما تبلغُ قيمتُه ألفَ دينار ، وقالت اقترحْ ما تشاء من الثمن ، فقال ، ثمنُه أننا عرفناكِ ، وحَظِينا برؤيتك ، وأن تتقبّليه هدِيَّة ، فقالت ، يا بُنَىَّ أشكرُكَ ، فما وجَدت مثل ملاحةِ وجْهك ، وحلاوَةِ قولِكِ ، وعذوبةِ طبعِك ، سَعِدَتْ فتاةٌ كنت لها

وكانت لك ، وسَعِدَ فِراشٌ جَمعكُما على سنةِ الله ورسوله ، ما اسْمكَ أيُّها الشابُّ الكريم ؟ فقال تاجُ الملوك ؛ فقالت : لئنْ صدقَ حدْسِي فأنت ابنُ مَلِكٍ ، فقال : وأنّى لكِ هذا ؟ فقالت : هذا الاسمُ لا يكون إلا فى قُصور الملوك ، فقال : جِئت أهلى على شوقٍ للولدِ عَظِيم ، فكنت عزيزاً لديهم ، فاختاروا هذا الاسمَ لى ، فقالت : وقاكَ اللهُ أعيُنَ الحسّاد ، فقد قهرتَ بجمالِك عزّةَ العِباد .

وودعتْه إلى السيدةِ دنيا ، ووضعت القماش بينَ يديْها ، فراق فى عَينيها ، وملكَ عليها مَشاعرَها ، فقالت العجوز : لا تعجَبِي مِن القماش وحُسنِه ، ولكنّ العجَبَ من جمالِ بائعه ، وكأنّه من غِلمانِ الجنة ، فلَو اجتمعتِ به يا سيدتى ليلةً ما ابتغيْتِ عنه حِوَلاً ، ولا رضيتِ منه بَدِيلاً . فطامَنَ هذا القولُ من اعتزازِ دنيا بجمالها ، وترفُّعِها به ، أن يمسَّهُ بَشَر ، ثم ساورَها شكٌّ فى قول العجوز ، فرجَعت إلى إبائها وترفُّعِها وقالت : ناوِلِينى القماشَ حتى أفحصَه جيّداً ، وبينما هىَ تُقلبُه فلا ترى فيه إلا ما يروقُها ، ساورَها أن العجوزَ صادقة ، فقالت : هلْ سألْتِ الشابَّ عن حاجةٍ له ، حتى يكون لنا يدٌ فى قضائها ؛ فقالت العجوز : لا حُرِمنا صدق فِراستِك ، وسُموّ نفسِك ، وهلْ يخلو أحدٌ فى الدنيا من مأرَبٍ يطلبُه ويَسعَى إليه ؟ فقالت : بلّغيه سلامنا ، وأن المدينةَ شرُفت بقدومه ، وأنى طوعُ أمره ، فيما يَبغى من حاجة . وكان هذا البلاغُ برداً وسلاماً على فُؤادِ تاجِ الملوك ، وناولَ من فوْره العجوزَ ألفَ دينار ، شاكراً لها حِكمة

سفارتِها ، وحبّها إياه الذى يبدُو فى عَينيها ، وقال : حاجتى أن تتكرَّمى بإعطاءِ كتابٍ منّى إلى السيدة دنيا ، على أن تأتينى منها بما تجيبُ ، فقالت : اكتبْ ماشئت فسَيصلُها فى الحال ، فكتب : « ضَيفُ مَدينتِك يشكرُكِ ، ويرجو أن تُكرِميه بزيارتك ، فقد أحبّك ، وزادَ هياماً بلقائكِ » .

ثم طوى الكتاب ، وناول العجوزَ إياه ، فلما رأتها السيدة دنيا قادمة قالت : أَخشَى أن يكون قد عفّ عن طلبِ ما يَبغِى ، فقد وددْتُ أن أقضيَ له ما يشاء ، فقالت العجوز : أمرنى بإعطائكِ هذا الكتاب ، ولا أدرى ما يَحتويه ، فلما قرأته حامت على وجهها سَحابة من ألَمٍ وقالت : لولا أنى أخافُ من ربى يوماً عبوساً قمطريراً لصلَبْت هذا الشابّ أمامَ دكانه . ثم أطرقت ساهِمة ؛ فقالت العجوز : وماذا أغضبَكِ من كتابه وأنت الراغبة فى قضاء مآربه ؟! فقالت : جَنَح بطلبِه لما أكرهُه ، فكلّه عشقٌ ومَحبّة ، وأين أنا من هذا التاجر الجوّالِ فى البلاد حتى ينشُدَ حُبّى ووَلَعِى به ؟! فقالت العجوز : وهل يضُرُّ السحابَ ، نَبحُ الكلاب !؟ ومن الرأى أن تجيبيه مهددةً إياه بالقتل إن لم يرتدِع عن ذلك الهذيان ؛ فقالت : علىّ بدَواةٍ وقرطاس ، وكتبَت : « لا تلتَمسْ ما لا يُنال ، وإن عُدتَ إليه أصابك حدُّ الْحسام » .

ثم طوت الكتابَ ، وألقت به فى حجْرِ العجوز ، ولما تجلَّى الصباح ذهبَت إلى تاجِ الملوك ، وأعطته الكتابَ وقالت : لقد ثارت السيدةُ دنيا

بعد قراءةِ كتابك ثورَة غيظ عنيفة ، ولكنى هَدْهَدْتُ ثورَتها ، وكَفْكفت من غيظِها ، حتى ضحكت ورقّت لك ، وكتَبَت إليكَ هذا الكتاب ؛ فشكرها تاجُ الملوكِ وأمر عزيزاً أن يُعطيها ألفَ دينار ؛ ولما قرأ الكتابَ وَجَمَ يائساً ، وأطرقَ حزيناً ، فقالت العجوز : وما أفزعكَ من كتابها ؟ فقال : تهدِّدُنى بالقتل إن لم أكفّ عن مراسلتِها ، وإنّ الموتَ أحبُّ إلى نفسى من حياةٍ لا تجمعُنى بها . فقالت : هَوّن على نفسِك ، فسأكونُ عَوناً لك على تحقيق مُرادِك ؛ فقال تاج الملوك : ولَكِ عندى خيرُ الجزاء ؛ ثم كتبَ فى قرطاس : « ما منعَ التهديدُ مُحبًّا صدقتْ محبتُه ، وبرئَ مقصِدُه ، وهذه أمنيةٌ أستعذِبُ فيها وِرْدَ الرّدَى ، والحرُّ الكريمُ لا يُحِبُّ إلا حُرًّا كريمًا » .

ثم ناولها الكتاب ، ورَجا منها أن تضمَهُ فى يدِ السيدة دنيا ، وتساعدَه فى تمكينهِ من قلبها ، فقالت : طِبْ نفساً ، فسيُعطيك ربُّك فترضَى . ولما ناولتها العجوزُ كتاب تاج الملوك وقرأته ، استمر غيظُها وقالت : إنّ هذا الشابّ لا يزال يطمع فينا ، فاذهبى إليه ، وأنذريه القتلَ إن لم يكفّ عن هذا . فقالت العجوز : يحسنُ أن تكتبى هذا حتى يَشتَدَّ خوفهُ ، ويُحجِمَ عن مطلبِه ، فكتَبَتْ : « تُرَجِّى وَصْلا دونَه إدراكُ السُّها ، ولن يَطمعَ فيه إلا مغرور ، فدعْ عنكَ هذا وإلاّ فقد حقّ عليك الثُّبُور » .

ثم طوت الكتاب ، وأمرَت العجوزَ أن تُسرع به إليه ؛ وما قرأه



تاجُ الملوك حتى زفرَ زفرةً حارةً وكتب : « أحببناك وصَدَقت محبّتنا ، فإمّا وصلْتِ وإما هجرْت ، وما أبعدَ هجْرَ الكريم للكريم ! ولست عن حبك راجعاً حتى يعودَ اللبنُ دماً » . وناول العجوزَ الكتاب ومعه ألفُ دينار وقال : هـذا آخر كتابٍ أُرسلُه، فإما أثمر وُدّاً ومحبة ، وإما أثمر هجراً وقطيعة فقالت : إنك عنـدي كنُورِ عَيني ، ولا تظننّ أنى عاجزةٌ عن الجمع بينكما ، فهوَ لا يكافئنى من المكرِ والمحالِ شيئاً ، فقرَّ عيناً ولا تجزع ، ثم دفنَت ورقة تاج الملوكِ فى شعر رأسَها ، وذهبت إلى السيدة دنيا ، وقالت : ناولتُه كتابكِ وتركتُه ، ولا أدرى شيئاً من أمره ، ولم يخبرْنى شيئاً أبلغُه ، فى المدةِ التى جلستُها عنده ، وبعد سكتةٍ غيرِ طويلة قالت العجوز : أشعرُ بورَمٍ يسيرٍ فى رأسى ، ولا أدرى له سبباً ، فقالت السيدة دنيا : لا بأسَ عليكِ ، أرينيه حتى أتبيّنَه ، وجعلت السيدة دنيا تنكتُ فى شعرها حتى سقطت الورقة . فقالت : وما هذه ؟ فقالت العجوز : ربما علقتْ فى شعرى وأنا جالسة عند التاجر ، هاتِيها لأرُدّها إليه إنْ كانت من عنده . فلما قرأتْها السيدة دنيا علتْ وجهَها غضبة حانقة وقالت : ماجرَّ علىَّ هذا البلاء إلا أنتِ أيتُها العجوز الماكرة ، لأُعذِّبنّكِ عذاباً شديداً ، جزاءَ ما قدّمَت يداك ، وأمرتْ الجوارى أن يضربْنَها ، ولما أشبعتْها ضرباً قالت . لولا مخافتى من اللهِ لقتَلتُكِ ، وأمرَت بإلقائها أمام الباب ، فقامت وهى منهوكة القُوَى إلى منزلها ، ولما جاء الصباحُ كانت فى دكانِ تاج الملوك ، فأخبرته بما نالها من أذى فى سبيله ،

فتألمّ من أجلها قائلا : اغفرى لى ما أصابكِ من مكروهٍ بسَبَبى ، فقالت : لا ضَيرَ عليك ، ولن أبرَحَ عنها حتى أجمعَ بينَك وبينها ؛ فسألها عن سبب نفورها من الزواج فقالت : ما رأتْهُ فى منامها ، فقال : وما ذلك ؟ فقالت : رأتْ فى المنام أن صياداً نشرَ شبكتَه ، فعلِق بها ذكَرُ حمامٍ كان مع زوجه ، فلم تتركْهُ الحمامة ، وجعلت تنقرُ فى جزء الشبكةِ ، الذى علِق بزوجها حتى خلصتْه وطارا ، فجاء الصيادُ وأصلحَ شبكتَه ، وتركها ليعلق بها الحمام إذا حَطّ عليها ، فعلِقت الشبكةُ هذه المرة بالأنثى ، فتركها زوجُها وطار ، فى غير اهتمامٍ بشأنها ، ولما جاء الصيادُ أمسكها وذبحها ؛ فقالت السيدة دنيا فى نفسها : هذه شريعةُ الرجال ، لا مروءةَ فيها ولا وَفاء .. وذلك سببُ نفورها من الزواج . فقال تاج الملوك : وددْتُ لو أراها مرةً واحدة ! فقالت العجوز : ذلك علينا يسير . فإنّ لها بستاناً خاصًّا بها ، تذهب إليه كلّ شهرٍ ، فتقيمُ فيه عشرةَ أيام ، ثم تعودُ إلى قصْرِها ، وقد جاء أوانُ خروجها إليه ، وما عليكَ إلاّ أن تذهبَ مختفيا إلى البستان ، وتكمُنَ فيه بحيث لا يراكَ أحد ، واحرِص على أنْ تفهمَ إشاراتى وتطبقها ، ولا تغادِر البستان حتى أشيرَ عليكَ بمغادرته ، فإنى سأحتالُ لترى هى جمالك ، فربما أولعَت به ، فتسعَى هى إليكَ ، وسأُخبرُكَ وقت خروجها لتنتظرَها فى بُستانِها ، ثم أغلقَ الدكانَ وصحبَ عزيزاً إلى منزلهما ، وودعَتْهما هى إلى دارِها .

وأفضَى تاجُ الملوك إلى الوزيرِ بكلِّ ما حصل ، وطلبَ إليه تدبير

الأمر، وأن يُشيرَ بما يرى، فقال: ليلبَسْ كل منكما أفخرَ ما عندَه، ولنخرُج الآن إلى البستانِ، فلما كانوا ببابِه أعطى الوزيرُ البستانيّ مائة دينار وقال: نحنُ غرباء، وقد برّحَ بنا الجوع، فلو أحضرتَ لنا شيئًا نأكله، على أن يكون لكَ المالُ الذى أخذتَه، كان لكَ علينا فضلٌ عظيم، ففرحَ البستانيُّ بما أخذ من الدنانير وقال: أُدْخلوا هذا البُستان وتنزهُوا فيه كما تريدون، ثم اجلسوا حيثُ يطيبُ لكم الجلوس، حتى أحضِرَ من السّوقِ طعامَكم، فدخلوه فإذا هو منضورُ الزهر، يتضوّع بالنسيمِ الأريج، ويرُوق بالرواءِ البهيج؛ وجعلوا يطوفون فيه: تارةً فوقَ حَواشيه، وأُخرى فى مَماشيه، حتى استقرَّ بهم المطاف تحتَ شجرةٍ ممدودةِ الأغصانِ، ترشُقُ الشمسُ ظِلالها الوارِفَة، إلى أن جاءهم البُستانيُّ بما أحضَرَه من طعامٍ وشراب.

ولما انتهَوْا من طعامِهم أخذوا يتحدثون؛ فقال الوزيرُ للبستانيّ: أَلَكَ هذا البستان؟ فقال: إنه لبنْتِ الملكِ السيدة دنيا، وإنى أعملُ فيه لِقاءِ أجرٍ شهريّ، فقال: وكم تأخذُ من الأجرِ فى الشهر؟ فقال: أجرى دينارٌ واحدٌ، فناوَله الوزيرُ ثلاثمائةِ دينارٍ وقال: أُريدُ أنْ أفعلَ شيئًا قد يكون فيه صَلاحٌ وخيرٌ، ففرِحَ البستانيُّ بما أَخذَ من المالِ وقال: اعمل ما شئت، فقال: وسيكونُ ذلك غداً إنْ شاءَ اللهُ تعالى، واستأذنوه أن ينصرِفوا إلى منزلهم.

وفى صَباحِ الغدِ كانوا فى البستانِ ومعهُم رَسّام ماهر، فأمرَه

الوزيرُ أنْ يرسمَ على جدارِ قصرِ السيدة دنيا ، المشيّدِ فى ناحيةٍ من بستانِها صورةَ صيّادٍ نَصبَ شبكتَه ، وعَلِقتْ بها حمامة ؛ وبجانبها صورة لتلك الحمامةِ والصيادُ يذبَحُها ؛ وبجانبِ الثانيةِ صورةُ صقْرٍ هَوَى على ذَكر حمام فأنشبَ فيه مخالبَه ، ثم غادروا البستانَ إلى منزلهم .

وكانت العجوزُ قد عكفت فى دارها ، وأرادت السيدةُ دنيا أن تخرج إلى البستان كعادتِها ، وهى لا تخرجُ إلا فى صحبة العجوز ، فأرسلت إليها ، فجاءتها على عجَلٍ ، فقالت لها : لقد عزمتُ على الإقامةِ فى البستان الأيام المعلومة ، وستكونين فى صُحبَتى ، فقالت : أمرُ سيّدتى مُطاع ، وأستأذنك ساعة ، أحضِرُ فيها من بيتى حاجتى من الملابس ، فقالت : على أن تحضُرِى فى أقرب وقت .

وذهبت العجوزُ إلى تاج الملوك ، وأخبرتْه أن يذهبَ من فورِه إلى البستان ويختبئَ فيه ، على أن يُنفِّذ كل ما أشارت به عليه ، فلبسَ أحسنَ ما عندَه من الثيابِ ، وأسرعَ إلى البستان ، فاستقبلَه البستانىُّ فرِحاً وأذِن له أن يدخلَه ، ويلبثَ فيه ما شاء ، وكان لا يعرفُ مجيءَ السيدة دنيا إلى البستانِ هذا اليوم ، وأغلقَ بابَ البستان ، وأخَذَ يعالجُ بعضَ شئونه فيه ، فأحسَّ حركةً نحو قصر السيدة دنيا ، ولما تبيّنَها وجد السيدة دنيا مقبلةً فى خَطوٍ كالقَطَا ، والعجوزُ والجوارى من حوْلها ، فأسرعَ إلى تاجِ الملوكِ وأعلمَه قدومَها ، ووَصّاه أن يُحْكِمَ اختفاءه ، حتى يخرُجَ من البستان دُون أنْ تَراه ، ثم أشارت العجوز عليها أن تأمرَ الخدم والجوارى

بالانصراف ، حتى تأخُذَ حرّيتَها بعضَ الوقت فى وَحدتِها ، فأمرتْهنّ أن يرجعن إلى القصرِ حتى ترسل فى طلبِهِنّ ، وجعلتْ تتنقّل فى أرجائه كالطيْرِ الطليق ، وتاج الملوكِ فى مكانه من البستانِ بحيث يراها ولا تراه ، حتى وقفتْ أمام الجدارِ الذى به الصورةُ المرسومة ، فعجبتْ أن وجَدتْها تحكى ما رأته فى منامِها ، وقالت : أنظرى أيتُها العجوزُ إلى ذَكَرِ الحمام ، فإنه مقبلٌ فى سرعةٍ واهتمامٍ ، لتخليص الحمامة زوجه ، ولكنّ الصقرَ انقضّ عليه فأنشبَ فيه مخالبَه ، وحال بينَه وبين إنقاذِه الحمامة ؛ لقد كنتُ مخطئةً فى بغضِ الرجال ، ورمْيِهم بعدم الوفاء ، والآن جاء الحقُّ وزهق الباطلُ ، فإنّ الرجلَ منهم لا يقلُّ عن المرأةِ ، وفاءً ومروءة ، إن لم يفُقْها ، وكانت العجوزُ قد أشارت إلى تاج الملوك — ودنيا مشغولة بالصور والتأمل فيها — أن يغادر البستان ، ويَسيرَ الهُوَيْنَى بجانبِ حائطِه ، بحيثُ يمكنُها من رؤيتهِ .

ولما رأتْهُ السيدةُ دنيا ، لبثتْ شاخصةً إليه فى سُهومٍ مُدَّة ، والعجوز كأنها متشاغلةٌ لا تفقَهُ شيئًا ، ثم قالت للعجوز : أنظرى إلى هذا الشاب الذى ما رأيتُ فى الجمالِ مثله ، فنظرَتْ إليه وقالت : بلغتُ من العمرِ تسعين سنة ، وما رأيت فيها شابًّا بلغَ من الجمال ما بلغه ، ولعلّه ابنُ ملكٍ من الملوك ، فآثارُ النعمةِ والمُلك عليه بادية — وأشارت إليه العجوز حينئذ أن يسرعَ إلى بيتِه — وكانت السيدةُ دنيا قد أُغرمت به ، واستعر قلبُها بحبِّه ، فجلستْ قائلة : وأين ذهبَ هذا الشاب ؟ فقالت العجوز : إنى

معك ولا يعلمُ الغيبَ إلا الله ، وربما كان له حاجةٌ فى مدينتنا ، ثم قضاها وسافر إلى حيث لا نَدْرِى ؛ فاحتدم فى صدرِها الهيامُ به ، وقالت : عليكِ أن تحتالِى ، وتركَبِى كل خطرٍ فى سبيل إحضارِه ، واجتماعى به وإلاَّ قتلتُكِ أشنعَ قتلة ، وهذه ألفُ دينارٍ لك ، وعندى لكِ مثلُها إذا جاء ؛ فقالت العجوز : لا داعى الآن إلى بقائكِ فى البستان ، فارجعى إلى قصركِ ، وخلِّى سَبيلِى فإنِّى باذلةٌ جهدِى ونفسِى فى تحقيقِ رغبتك ، وعَسَى أن يوفقنى اللهُ تعالى ؛ فقالت السيدة دنيا : وذلك خيرُ ما نفعل .

وانفلتت العجوزُ إلى تاجِ الملوكِ فى منزله ، فسُرَّ لرؤيتها ، وانتظر فى لَهفٍ ما تقول ، فحكَت له كل شىء وقالت : وسيكونُ اجتماعكما غداً ، فقال : أطال اللهُ عُمرَكِ ، ولا حُرِمنا سديدَ رأيك ؛ وناولها ألف دينار ؛ ثم انصرفتْ إلى السيدة دنيا ، فما رأتها حتى سألتْها عن حبيبها ، فقالت : اليومَ عرفتُ مكانه ، وغداً يكونُ حاضراً بين يديك ، فابتهجَت ومنحتْها ألف دينار ، ثم أذنتْ لها فى الانصراف ، فرجعتْ إلى منزلِها ، وكانت قريرةَ العيْن بما غنِمتْ من مال ، وبما فازَت فى المكرِ والمِحَال .

ثم ذهبتْ فى الصباح إلى تاج الملوك فألبستْه ثيابَ فتاة ، وأمرته أن يحكىَ المرأةَ فى مَشيها وحركاتِها ، وألا يكلّمَ فى الطريق أحداً ولا يلتفت إليه ، وقالت : ستتبَعُنى إلى قصرِ السيدة دنيا ، فإذا ما ناديتُ عليكَ قائلة : أسْرعى يا جارية ، فأَطِعْ أمرى ، وعُدّ خمسةَ أبوابٍ عن شمالِك ، وأُدخل البابَ السادس ، فإنكَ واجدٌ الأميرة فى انتظارك .

وسارت بتاجِ الملوكِ ، وهو فى زىّ جارية ، حتى كانت بقصرِ الأميرة ، فاستوقفها كبيرُ الخدمِ قائلا : ما شأنُ هذه الجاريةِ التى معكِ ؟ فقالت العجوزُ : هذه جاريةٌ تحذِق الأشغال ، وقد سَمِعت الأميرةُ عنها ، وأرادت أن تشتريَها ، فجئتُ بها تنفيذاً لأمرِها ، فقال : لا شأنَ لى بالجارية ولا بأحدٍ غيرها ؛ وإذا كان لابدّ من دخولها فلا بُدَّ من تفتيشها ، فقالت العجوز : مالى أراكَ اليومَ على غير ما عَهِدْناه فيك من حكمةٍ وهدوء — والتفتت إلى تاج الملوكِ قائلة : أسرعى ياجارية — ألا تعلَمُ أن الأميرة تثورُ عليكَ غاضبة ، إن علمَت أنكَ تعترضُ سبيلها إلى حيثُ تريد ! ؟ وهل الأميرةُ تطمئنُ إلى أن تلمَس بيدَيكَ جسمَ جارية ، قد تكونُ من المحظيات لديها ؟ ألا تعلَمُ أنى أحبُّكَ وأحرصُ على راحتك وحمايتك من كل مكروه ؟ وجعلَت تشغله وترقيه ، حتى كان تاجُ الملوكِ فى حجرة الأميرة ، ثم ذهبَت العجوز إليهما ، فأمرتها الأميرةُ أن تقفَ بالباب ، وتصرِف ما عداها من الجوارى والخدم ، فصدَعَت بأمرها ، وغلّقَت الباب عليهما ؛ ولبِثا معاً فى حديثٍ وأُنسٍ وسَمَر ، فى براءةٍ وعفة ، مدة يومٍ وليلة ، والعجوزُ تتولى وحدَها الإشراف عليهما وقضاءَ شئونهما .

أما الوزيرُ وعزيزٌ فإنه لما لم يحضر تاجُ الملوك إليهما ، ظنَّا أنه لن يخرُج من القصرِ أبداً ، فرأَيا أنْ يسافرا إلى أبيه الملك سليمان شاه ، ويخبراه بما انتهى إليه أمرُ ابنِه ، ليكونَ الرأىُ بعد ذلك له ، فنزحَا من مدينةِ الأميرةِ دنيا ، وركِبا متنَ الريح لا يلويانِ على شىء ، حتى كانا بين

يدَىِ الملك سليمان شاه ، ففزِع لقدومهما وحدهما ، وكادَ الفزعُ يبدو عابثاً فى استقباله لهما ، ولـكن حَبَسَهُ ثباتُ الملكِ ورَزانته ، ومُطاوَلةُ الحوادثِ والصبرُ عليها ، ولما أخذا مثواهما بين يديه سألهما عن ابنه ، فقال الوزير : ما أسرعْنا بالمجيء إلا من أجلِ إخبارِك ، وأفضَى إليه بكلِّ ما فى نفسه ، إلى أن قال : ثم انقطعَت عنّا أخبارُه ، من يوم أن دخـل قصرَ الأميرة دنيا ، إذ لم يهبط منه أبداً ، ولم نعرفْ سبيلا إلى أن نجِدَ رِيحَه ؛ فقال الملك : فلتُعَبَّأ الجيوش ، ولنذهبْ إلى ملكِ جزائر الـكافور ، فإن كان ابنى حيًّا أتينا به ، وإلا انتقمنا منه له ؛ فقال الوزير : ذلك ما يجب أن يكون ، ونرجو أن تـكونَ العقْبَى خيرًا .

ونادى الملكُ فى رعيّته ، التى تدينُ له بالولاء والمحبة ، أنْ هُبُّوا لنجدة ابنِ مَليكِـكُم إن كنتم له غاضبين ، فـكان هذا النداء صيحةً دَوّتْ فى قلوب الشبانِ والرجال ، فنسَلُوا من كل حدَب ، وانضموا إلى الجيش الرسميِّ القائم ، وساروا فيالقَ تسدُّ الأفق ، حتى قاربوا مدينةَ الملك شهرمان ، والدِ الأميرة دنيا .

وفى تلك الأثناء كان تاجُ الملوكِ ودنيا فى جنةٍ من وحْدتِهما وتَساقيهما شرابًا طَهورًا من الولاء والمحبة ؛ وذات يومٍ قالت له : أنا الآن معروفةٌ لديك ، فهلْ لكَ أن تعرفَنى بك ؟ فقال : وأن أبيّنَ الغرضَ من قدومى ، فقالت : نعَمْ ، وسأكونُ اليدَ العاملةَ فى تحقيق غرضِكَ ، فقال : أنا تاجُ الملوكِ بن الملك سليمان شاه ، الذى بعث وزيره إلى أبيكِ ، ليخطبَك

لِي ، فأبيتِ وخرجت عن رغبةِ أبيك ؛ وقصَّ عليها تاريخَه برُمته ، فقالت : ولكنِّي رضيتُ الآن ، فقال : فلأُسافرْ إلى أبي ليرسلَ إلى أبيكِ رسولًا يجدِّدُ الخطبة ، فقالت : وسأرتقبُ الرسولَ حتَّى أسهلَ له برضايَ السبيل ، وكانا قد سهرا طويلا ، يتسامرانِ ويبنيان قصورَ الآمال السعيدة ، في حياتهما الزوجيّةِ المقبلة ، ولمْ ينَاما إلا في الهزيع الأخير من الليل ، فجاء النهارُ وهُما غارقانِ في نَوْمِهما .

وبينما كان الملكُ شهرمان جالساً على عرشه ، إذْ جاءه صائغ ومعه جواهرُ قيمتُها مائة ألف دينار ، فأعجبَهُ صنعُها ، وأرسلَ بها كبيرَ الخدمِ إلى ابنتِه لتأخذَها جميعَها ، أوْ تختارَ منها ما يرُوقُها ؛ فلمَّا وصل إلى مقصورتها وجدها مغلقة ، والعجوزُ أمام بابها نائمة ، فأيقظَ العجوز وأرادَها على أن تفتحَ بابَ الحجرة ، فخشيَتْ أن يفتضحَ أمرها وقالت : أنظِرني حتَّى أحضِرَ المفتاح ، ثمّ انفلَتَتْ وخرجَت من القصْرِ هاربة . ولما لم تعُدْ بعد انتظار طويل ، ساوَرَ الخادمَ ريبٌ ، فعالجَ بابَ الحجرةِ حتى فتحه ، فرأى الأميرةَ دنيا نائمة ، وبجوارِها شاب على فراشها ، ولما أيقظها هبّت من نومها فزعة ، فقالت له : يا كافور ، من المروءةِ أن تكتُمَ أمري عن أبي ، ما دمتُ لم أجترحْ فيه خطيئة أو إثما ، فقال : وهل بعد ذلك خطيئة ؟ ! إني لا أستطيعُ إخفاءَ شيءٍ عن ملِكي ووليِّ نِعمتي ، ثم أقفلَ البابَ عليهما ، وفرّ مسرعاً إلى أبيها ، فلما كان بين يديه قال : لعلّ ابنتي قد أعجبتْها الجواهرُ أو شيءٌ منها ؟ ! فقال كافور :

فوجئتَ بما منعنى عن عرضِ الجواهر ، فقال : وما فجأكَ يا كافور ؟ فقال : رأيتُ عند سيدتى الأميرة شابا جميلا ، نائما بجوارها على سَريرها ، فلم أُطِقْ صبرًا ، وأغلقت باب الحجرةِ عليهما ، وجئتُ من فورى إليك ، فأمر الملكُ بإحضارِهما ، ولما مَثَلا بين يديه ، وعرفَ صدق كافورٍ فى خبره ، همّ أنْ يضربَ تاجَ الملوكِ بسَيفِه ، فحالت ابنتُه دون ضربِه وقالت : اقتُلنى قبلَه ، وإلا فخلِّ سبيلَه ، ولا تقتلوا الأبرياءَ بالظنّة ، فأمر الملك أن يحبسوها فى حجرتِها ، ثم التفت إلى تاج الملوكِ قائلا : مَن أنتَ حتى تنتهكَ حرمةَ قصرى ، وتجتمعَ بابنتى ؟ ! فقال : تاجُ الملوك : لا تثريبَ عليكَ إن تريثْتَ فى أمرى ، وإن أنتَ أصبتَنى بمكروهٍ ، جلبْتَ على نفسِك وشعبِكَ الويلَ والثبور ، وخيرٌ لك أن تستمعَ لما أقول ، مبرِّئًا نفسَك من نزغات الهوَى ، مُحكِّمًا عقلَك وحِكمتَك ، وليست الشدةُ فيما تملكُ من سلطانٍ وقوة ، وإنما الشدةُ أَن تملكَ نفسَك عند الغضب ، وأعظمُ آثار العقل نفعاً ، إذا صرّف صاحبَه ، وقتَ خَطبِه وفزَعه . فهدأَ الملك وقال : قُل ما بَدا لك ، وكان وزراؤُه جالسين ، فقال تاج الملوك : أعلم أننى ابن الملك سليمان شاه ، قدمتُ إلى مدينتِك ، محتالا لزواجى من ابنتِك ، ولم أَمْسَسْها بسوءٍ ، وقد وُفقْتُ إلى الاجتماع بها ، وقبولى زوجاً لها ، وحللْتُ بذلك عقدةً لم تستطِعْ أنت حلَّها ، إذ رضِيَت الأميرة بالزواج ، بعد أن كانت نافرةً منه آبيَة ، فإنْ نِلتنى بعد ذلك بسوءٍ هلكْت وأَضعْت مُلكك ، وهذا كل ما أستطيعُ قوله . فالتفت الملك

إلى وزرائه وقال : أليسَ من الحكمة أن نُلقيَ هذا الشابَ فى غيابة السجن حتى نتبيّنَ أمرَه ، ويثبت صدقه أو كذبه ؟ فقال كبيرُهم : إن وجودَه بحجرةِ الأميرةِ كفيلٌ بقتلِه ، وإهدارِ دَمِهِ ، فهو انتهاكٌ لبيت الملك وحُرْمتِهِ ، وقال أحد الوزراء : وكما ننظر فى الأمر من أوّله ، فلننظُرْهُ من آخره ، ولتفكّروا فى عاقبةِ ما تفعلون ، وكيف يكونُ القتلُ جزاء شاب هدفُه الزواج ، وهو أمرٌ مشروعٌ وليس بجريمة ، واحتال للاجتماع بالأميرة ولكنه كان أمينا نبيلاً ، فلم يمسَسْها بسوء ، وغيّر وجهَ حياتها ، فجعلها ترضَى أن تكون زوجا تؤدّى فى الحياة رسالتها ؟ والرأى عندى أن يودَع فى مكان مكرّماً ، حتى يتبين الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ فى أمرِه .
وقال وزيرٌ آخر : نحن أُولو قوة ، وأُولو بأس شديدٍ ، وقد مُسَّت كرامةُ الملِك بتسلّلِه إلى مقصورة ابنته ، فأمرَ الملكُ أن يُلقى فى السجن معذّباً إلى أن يُفصَلَ فى أمرِه .

وما كاد الجند يسحبونه إلى السجن حتى سَمِع الملِكُ ووزراؤه من المدينةِ صياحاً وجلبة ، كأنّ أمراً خطيراً وقع ، فبعث رسُلَه يتبيّنونَ هَرَج المدينةِ وضَجّتَها ، فجاءوا إليهِ بنَبأ عظيم ، وذلكَ أنهم رأوا جُيوشاً كأنها قِطعُ السحاب ، آتية بخيلها ورجلها وعُددها إلى المدينة ، فارتاعَ الملكُ ، وخشِيَ على ملكه أن ينهارَ بنيانُه ، ولم يلبثْ غيرَ قليلٍ فى اضطرابه وخشيته ، حتى جاءتهُ حجّابُه ، ومعهم رسلُ الملك سليمان شاه ، وفيهم وزيرُه ، فألقى عليهِ تحيته ، فردّها بأحسنَ منها وقال : ما خطبُكم أيها

القادمون ؟ فقال الوزير : جاءكَ الملكُ سليمان شاه بقوة لا تبقى ولا تذر ، ويبلغُك أن ابنه تاج الملوك لديك ، فإنْ كان معافى سليما أخـذه ورجَع ، ولم يمسَسْكَ بضرٍّ ولا أذى ، وإلا فقد حَقّ عليكَ غضبُه ، ولا منجاةَ لكَ من يَدِه ، وسيحلُّ بكم الدّمارُ ، وخرابُ الديار ، فقال الملك : ائتُونِى بالشاب الذى كانَ معنا الآن ، فلما حضر عرفَ وزير أبيه ، فسلّم وحيّاه ، ثم التفت الملك شهرمان إلى رسل الملك سليمان شاه وقال : هـذا غُلامكم ؟ فقالوا : نعَمْ ، فأمرَ أن يذهبَ به حجّابُه إلى الحمام ، ويلبسوهُ حلةً فاخرة ، فقال الغلام : ولى عندَ الملكِ حاجَة ، فقَال : لكَ ذلك . ولما جىء به من الحمام فى حُلةٍ ثمينة ، وانتظمَ فى مجلسِهم ، أخذَ يحدثُ وزير أبيه عما كان منه ، من يوم أن ضمّه قصر الأميرة ، فقال الوزير : ونحنُ منذُ أن غبتَ عنا أسرعْنا إلى أبيكَ وأخبرناه ، فجاء بجنـدِه ، وأوفدنا إلى الملك شهرمان نسألهُ عنكَ ، وهو ينتظِرُ عودَتنا ، فقال الملك شهرمان : لازِلتُم رُسلَ خير ، ومَبعثَ سلام ، ثم استأذنَ جلساءه ، على أن يعود إليهمْ بعد قليل ، وغادرهمْ إلى ابنتِه فى حجرَتها ، فألفاها قدْ أمسكتْ سيْفاً فى يَدِها ، لتغمده فى صَدرها ، إذا هىَ علمتْ أن تاجَ الملوكِ نُفّذ فيه حكمُ الإعدام ، ودُموعها كأنها سحابٌ مُنهمِر ، فربتَ أبوها على كتِفِها وقال : لا بأسَ عليك ، وقصَّ قصة تاج الملوك وقدوم أبيه ، وأعلنَ إليها أن أمر الزواج موكولٌ إليْها ، فقالت : ولا يرغبُ عن الزواج بهـذا الشابِّ إلا فتاةٌ بها مَسٌّ من العتهِ والجنونِ ، فتى جميلٌ ، وابنُ ملك . وعلى خلقٍ كريم ، ولم يخنْكَ فى

عرضك مدة طويلة ، كنتُ فيها له ، أطوعَ من بنانِه ، فقال أبوها : الآن اطمأنتْ نفسى ، وهدأ دَمِى ، وسأبرمُ وثيقة زواجك منه الليلة ، فى حضرة والده ، ففرحتْ ودعتْ لوالدها بالتوفيق والسداد .

وخرج إلى جلسائه يتهللُ وجهه بشراً ، فأمر أن ترسلَ الهـدايا إلى الملك سليمان شاه ، وأنْ يسبقَه وزيرُه ورسلُه إليـه ليخبرُوه أن ابنَه فى قصر الملك شهرمان وكأنه أحـدُ أبنائه ، وأنهُ قادمٌ يدعُوكَ إليه ، ليبرم زواج ابنك من ابنتِه ، ففرحَ الملكُ سليمان شاه وقال : الحمـد لله الذى لم يفجَعنِى فى ولدى ، ويسّرَ له أمره ، وأناله مأربَه ، ثمّ استقبَلَ الملكَ شهرمان بين عزفِ الموسيقى ، وتحية الجيوش ، والهتاف بحياتِه ، وبعد أن جَلس معهُ قليلا يتبادلان آيات المحبّةِ والألفة ، هنأه شهرمان بسلامة ابنِه ، وفوزه بنيل بُغيتِه ، ودعاهُ إلى قصرِه ، ليـكتبَ وثيقة زواج ابنِه من ابنتِه .

وتقدمتهما موسيقى الجيش صادحة ، ودخلا المـدينة ، بين الجموع الحاشدة ، والفرحة المبتهجة وزَغرَدَةِ النساء ، وخفقِ الأعلام والبنود ، إذ كان الملك شهرمان ، أعلنَ قدوم الملِك سليمان ، ليحضُر زواج ابنه تاج الملوك ، من ابنتِه الأميرة دنيا .

وجاءالقضاة والشهود ، فأبرمُوا عقدَالزواج ، ودخلَ الأميرُ بالأميرة ، وأقام الملك وابنه فى القصر ثلاثة أيام .

وكانَ الشاب عزيز فيمن حضر ، فطلبَه تاج الملوك ، وأعطاه مائتى ألف دينار ، وقال له : الآنَ وجَبَ أن ترحلَ إلى أُمك ، كى تقر عينُها بك

وتسعدَ بجوارك ، ومنحهُ كلٌّ من الملكين مالا جزيلا ، وودّعه تاج الملوك وداعاً كريماً .

ولما دخلَ على أمه ، ألفاها عاكفةً على قبرٍ بمنزلها ، أقامتْهُ بيديْها ، ليكُون مبكى لها ، كلما ذكرت ابْنَها ، فلما رأتْه خرّتْ لله ساجدةً خاشعة ، وقامت إليه حاضنةً مقبّلة ، ثم جلستْ وإياه فَرِحة مَسرورَة ، فحدَّثَها بما جرى له ، ووضعَ بين يديها المالَ الذى مَعه ، فزادَها فرحاً ومَسرّة ، وعاشَ معَها فى رخاء وسَعة ، حتى وافاهما القدرُ المحتوم .

أما الملكُ سليمان شاه فقـدْ رجَعَ بجيشِهِ وابنِه وزوجه إلى مدينته ، وهناكَ أقامَ الولائمَ ، وحَفلاتِ الابتهاج ، بزواج ابنِه شهراً كاملا ، واعتدَل الزمانُ بهـذا الزواج ؛ ونفَضَ عليهم نورَه وسرورَه ؛ وسلامَه وصفاءه ؛ وكان تاجُ الملوك فى ذلك كلِّه مثلا صادقا فى الجهاد ، واحتمال المكارِه ؛ وأسوةً حسنةً فى كبْح جماح الهوى ، والاعتصام بالخلق القويم فجزاه الله بما جَاهدَ وسعى ؛ فى إخلاص ونزاهَة ؛ فوزاً عظيما ؛ وعزاً مقيما .



علاء الدين أبو الشامات

كان بمصرَ فى الزمَنِ الأوّلِ رجُل يسمى شمسَ الدين ، وهو رئيسُ التجّار ، عُرِفَ بالصدق والأمانه ، فلا يغُش ، ولا يطمع ، يَعيش فى نعمةٍ من مالِه الوفير ، وعِزّةٍ مِن جاهِه العَريض ، وكثْرةٍ من الجوارى والمماليك ، وقضَى أربَعين خريفًا معَ زوجتِـه العَقيم التى لم تَلِد ، وجلس إليه أحدُ أصحابه فى دُكانه فقالَ : أرأيتَ هؤلاءِ التجـار ؟ كل تاجرٍ منهم له وَلَد ، وسيخلفُه فى تجـارته بعدَ موتهِ ، فيستَمِرّ بيتُه عامراً ، وذِكرُه سائراً ، أمّا أنت فلم تُرْزق بولد ، وإذا جاءك الموتُ أُطفِئَ مِصْباحُ حياتِكَ ، وأُقفِلَ بيتُك ، ونُسِيَ ذِكْرُك ، ولا أدرى سَبَبًا لرِضاكَ بهذه الحـالة ، وأنت رئيسُ التجار وأغناهم ، وتَستطيع أن تتزوّجَ ثانية وثالثة ورابعة ، ما دامت زوجُك الأولَى عقيما ، فأمسَكَ شمسُ الدين لحيتَه بيـده وقال :

نصيحةٌ متأخّرة ، وسأنظرُ فيها ، وأرجو أن يَهبَ الله لِي غلامًا ذكيًّا .

فكّر شمس الدين فى كلام صاحبه بعد أن فارقه ، فأدركَ أنه قصّر فى حَقّ نفسه ، وذهب آخرَ النهار مغمومًا إلَى بيته ، فاستقبلتْه زوجتُه كعادَتها ، ولكنه كان زعلانَ متأثّرًا ، فلم يكُن مسرورًا بلقائها ، وامتنَع أن يتناوَلَ طعام العشاء ، فاهتَمّتْ زوجتُه لحالته وسألتْه عمّا أغضبه وأحْزَنَه فقال : أنتِ سببُ حُزْنى وألمى ، فقد حلّفْتِنى ليلةَ الدّخُولِ بِكِ ، أنى لا أتزوّج غَيركِ ، ولا أتسرَّى بجارية ، وقد ظهر لِي بعد هذه المدة الطويلة أنكِ عَقيم ، فحرمْتِنى ولدًا يَرِثنى ، ويُبقِى ذِكرِى ، ويكون امتدادًا لحياتى ، فقالت : ولِمَ لا يكون العقْمُ فيكَ ؟ كان عليكَ أن تتناوَلَ الدواءَ المسمَّى « معكر البيض » مِثلَ غيركَ من الأزواج قبل أن تتهمَنى بالعُقْم ، فإذا تناولْتَه ولم أحبلْ منك كان العُقْمُ عندى ، فقال : وأيْنَ أجدُ هذا الدواء ؟ فقالت : عند العطارين .

وفى الصباح ذهبَ شمسُ الدين إلى عطّارٍ وطلب منه « معكر البيض » فضحك العطَّارُ فى نفسه وقال : كان عندى ونفِد ، فذهب إلى بقيّة العطارين وسألهم ، فكان جوابُهم مثل جواب العطار الأوّل ، فجلس فى دكانهِ حزينًا ، ولم يلبثْ غيرَ قليل حتى مرَّ به نقيبُ الدلّالين حسبَ عادته ، فوجده مُطرقًا متغيّر الحال ، فسأله عما يُؤْلمه ، فحكى له ما جرى بينه وبين صاحبِه ، وبينه وبين زوجته ، وكان هذا النقيبُ من الظرَفاء ويسمى « محمد سمسم » ، فابتسم وقال : أفرَحْ يا رئيسَ التجّار ، فقد جاءك

الفرَجُ ، وأنا الذى أُحضِر لك هذا الدواء ، ولا يأتى مَغرِبُ هذا اليوم حتى يكون الدواءُ بين يديك . ثم مضى نقيب الدلالين ، فصنَعَ مخلوطا من القرَنفُل والزنجبيل والقرفة وعسل النّحْل وغيرها ، وأحضره إليه وقال : ذلك هو الدواء ، فخُذْ منه مقدار نصف ملعقةٍ صغيرةٍ كل يوم ، وأكثِر من أكل لحم الضأنِ والحَمام ، فشكره ونفّذَ قوله .

ولما جاء موعدُ الحيْض ولم تحِضْ زوجُه علِم أنها حملَتْ ، وقوّى هذا العِلمَ ظهورُ آثار الحمل بَعْدَ أربعةِ أشهر ، وعَمّ الفرحُ البيتَ باستقبال المولود السعيد ، ولما كان جميلَ الشكل ، له شاماتٌ على خدّيه ، سمّاه أبوه عَلاءَ الدين أبا الشامات ، وحتى لا يحسُدَه أحد جَعلَ له فى البيت ناحيةً خاصة لا يدخلُها غريب . ولما بلغ من العمر سبعَ سنين وكَلَهُ إلى عَبْدٍ وجارية يقومان بخدمته ، وإلى فقيه يحفظُه القرآن ، ويعلّمُه الكتابة والعِلم

وذات يوم نسِيَ العبدُ البابَ مَفْتوحا ، فخرج عَلاءُ الدين ودخَلَ على أُمّه فى مكانها ، وكان معها جَمعٌ من نِساء الأعيان والكبراء ، فلمّا رأينَهُ غَطّينَ وجُوهَهُنّ وقلن لأمّه : كيفَ يدْخلُ علينا فى بيتك شابٌّ أجنبيّ ؟ فقالت . إنه ابنى وابن شمس الدين رئيس التجار وزوجى ، فقُلن : ما علِمنا لكِ ابنًا قبلَ اليوم ، فقالت : خاف أبوه عليه من الحسد ، فأفْرَدَ له ناحية من بيتِه ، ويظهَرُ لى أنَّ العبْدَ ترَكَ البابَ مفتوحا فخرجَ منْه وجاء إليْنا ، فهنّأْنَها به ، ورَجَوْنَ له كل خير

وجعل علاءُ الدين يتَنقّلُ فى بيت أبيه وحَديقتِه ، ويسأل عن كل

شىءٍ يقع عليه بَصرُه ، وجاء يومٌ سأل فيه أمَّه عن صنعةِ أبيه ، فقالت : أبُوكَ تاجرٌ ، ورئيسُ تُجارِ مصر جَميعِهم ، فقال : ولماذا حبسْتُمونى فى البيْت ؟ فقالت : ما حبَسك إلا مخافتُنا عليْكَ من أَعيُن الحُسّاد ، فقال : وهلْ من القضاء مَفرٌّ ، فقالتْ : والحذَرُ لا يمنَعُ قَدَراً ، ولكنّ ذلك لا يمنَع من استِمساك المرءِ بالحكمة والحزْم ، فقال : وإذا ماتَ أَبى وقلتُ إنّى ابنُه فإنّه لا يُصدِّقُنِى أَحدٌ ، وحينئذٍ تذْهبُ أَملاكُ أبى وأَمْواله إلى بيتِ المال ، ومن الواجِب أَنْ أخرجَ إلى السّوق مَع أَبى ، وأَشتغِل بالتجارة مِثْله ، وإذْ ذاك أُعرفُ بين الناس أنّى عَلاءُ الدين بنُ شمس الدين ، فقالت أمّه سأُبلِّغُ أباكَ ما قُلتَه ، وأَرجُو أَنْ يَسْتَجيبَ لرغبتِك .

وحضَر أبوه وأطلعتْه زوجُه على كلّ شىءٍ يرغَبُ فيه عَلاءُ الدين ، فَفرِح بما سَمِع ، لأنّه عرف أنّ ابنَه يُحبّ أن يكون حياً عاملا ، فأحْضَره بين يديه وقال . سآخذُكَ معى إلى السّوق غداً ، فالتزم الكمال والأدب ، فى قولِكَ وعَملِك ، ولا تجْعلْ لِلكِبْر سَبيلا إلى قلبكَ ، فلَنْ تجِدَ متكبِّراً يحبُّه أحَدٌ ، ولا يفْتَحُ قلوبَ النـاسِ لكَ إلا تواضُعُك واحْترامُك لهمْ ، فقال : لك الأمرُ وعَلىّ السمْعُ والطّاعة .

ركِب علاءُ الدين خلفَ أبيه على بغلته إلى السُّوق ، وكانَ جميلَ الطلْعة ، ويزيدُه جَمالا حُسنُ مَلبَسِه ، وجلسَ بجوار أبيه فى دكّانه ، فظنّ التجارُ الظنُون بشمس الدين ، وجَعلُوا عن هذا الغلام يتساءلون ، وأخَذُوا يتهمُون شمس الدين فى دينِه وخُلُقِه ، واتفقُوا على ألا يذهبُوا إليه كعادتِهم لِتَحيَّتِهِ

والدعاء له ، وأن يعزِلُوه عن رئاستهِم ، ويجعَلوُها فى تاجرٍ آخَر ذِى دينٍ وخُلُق .

ومرّ به نقيبُ الدلالين ، فسألَه شمس الدين : ماذا حصَلَ ومنَعَ التجارَ عن الحضُور إليْنا كعادتهم للتّحيةِ والدعاء ؟ فقال : لا أُخفِى عليكَ شيئاً ، فقدْ أساءوا بك الظن ، حِينَما رأوْا معكَ هذا الغلامَ الجميل ، وعَزمُوا على أن يَعزِلوكَ ، ويُولّوا غيْرَكَ ، فقال شمس الدين : هذا الغُلامُ ابْنِى ، ولكَ أنتَ الفضْلُ فى مجيئه ، فأنتَ الذى صنعْتَ لى الدواءَ الذى كان سبباً فى أن وهَبَ الله لى هذا الغُلام ، وقدْ أَخفيْتُ أمرَه ، وحَبستُه فى بيتِى خَوفاً عليْه من أَعْيُن الحسّاد ، ولما رغِبَ هو فى الخروج مَعى إلى السوق أحضرتُه لأعرّفَه الناس ، وأعلمَه التجارة ، حتى يمكنَه أن يَضطَلِع بأعباء الحياة من بَعدِى ، وقد سَميتُه علاء الدين أبا الشامات .

ذهبَ نَقِيبُ الدلالين إلى التجار ، وأعلمَهم حقيقةَ الأمر ، فجاءوا إلى شمس الدين أفواجاً يهنئونه ، ويعلنُون ابتهاجَهم بولده علاء الدين . وطلبُوا إليْه أن يُقيم وليمةً تليقُ بمقامِه ، شكراً لله ، وسروراً بهذا الغلام السعيد ، فقال : لكم ذلكَ ، ولتكُنْ يوم الخميس المقبل فى بيتى .

وأعدَّ شمس الدين للمدْعُوين مالذَّ وطابَ ، من أنواعِ الطّعام والشراب ، وأعَدّ مكاناً للشبَّان ، يستقبلُهمْ فيه ابنه علاء الدين ، ومكاناً آخر للشيوخ يستقبلُهم هو فيه ، واجتمع المدعُوون فى اليوم الموعُودِ ، فأكلوا وشربوا ، ثم جلَسُوا يتحدّثون ، كل صاحبٍ إلى صاحبِهِ ، فى

شتى من مختلفة ، وكان من بين التّجار محمود البلخى وكان يُظهِرُ الإسلامَ والاستمساكَ به ، ولكنّه فى حقيقةِ الأمرِ مجوسىّ ، يُخفِى على الناسِ دِينَ المجوسيّةِ الذى يَعتنِقُه ، وما كانَ أحدٌ يعرِفُه إلا بأنه مُسلِم ، فانتهزَ هذا فُرصةَ غيابِ علاء الدين عن الشبانِ فى قضاء حاجة ، وذهبَ إليهم فقالَ من استطاع أنْ يجعلَ علاء الدين يُسافِر فى تجارةٍ ، أعطيتُه مُكافأةً قيّمة ، ثمّ رجع إلى مجلِس الشّيوخ .

ولما عادَ علاء الدين إلى الشبانِ أجلَسُوه بينهم ، وأخذُوا يتحادثون ، فقال واحدٌ منهم لصاحبِه : من أين جمعتَ رأسَ مالِكَ يا حَسن ؟ فقال : كان معى ألفُ دينارٍ ، ورثتُها عنْ والدَتى ، فاشْتَريتُ بها بِضاعة ، وسافرتُ بها إلى الشام فربحْتُ فيها ألفَ دينار ، ثم اشتريت بها بِضاعةً من الشام ، ورحلْتُ بها إلى بَغداد ، فكسبتُ ألفَىْ دينار ، وهكذا أخذْت أشترِى وأُسافر وأَبيعُ وأَربَح ، حتى بَلَغَ رأسُ مالى عَشْرَة آلاف دينار ، ولما سُئِل الثانى قال مثل قوْله وهكذا حتّى لم يبق إلا علاء الدين فقيل له : وأنتَ يا سيّدِى ؟ فقال : لَيسَ لى حاجةٌ فى السفَر ، فقال أحدهم : إنّكَ مثل السّمكِ إنْ فارق الماء مات ، إنّ السفَرَ بابُ الرزق الواسِعِ ، والتعارُف النافِع ، والعلْمِ السّاطع ، وهُو فخرُ التجار ، وتَبْصِرَةٌ لأُولى الأبْصار .

فارق علاء الدين الشبّان ، بَعدَ أنْ أشْعلوا حُبَّ السّفَر فى صدْره ، وذهبَ إلى أمّه فنَقَل إليها حديث الشُّبان ، وأنهُ من أجْله مُصِرٌّ على السفَر إلى بغداد ، لما يتوقّعهُ فيها من ربح عظيم ، فقالتْ أمّه : إنّى راضيةٌ بالسفَر

ولكَ من مالى عشرةَ أحمالٍ من القماش ، وسآمرُ الغلمانَ أن يبدءوا فى إعدادها من الآن ، ولكنْ لا تسافر حتى يحضُرَ أبوكَ وتستأذِنه ، وسيبْعثُ معكَ إنْ أَذِنَ أصْنافًا من البَضائع ، يقبلُ على شرائها الزبائنُ والتجارُ من كلِّ ناحيةٍ ، وستجد فيها رِبْحًا وفيرا .

ولما عرضَ أمرُ السفرِ على أبيه قال له : الغربةُ مُرَّة يا بُنيَّ ، وقدْ قيل : مِن سعادَة المرءِ أن يُرزقَ فى بلدِه ، فقال علاء الدين : السّفَرُ من أَماراتِ الرجُولة ، والثقةِ بالنّفْس ، والإيمانِ بخالق الجنّ والإنْس، وقدْ مَنّ الله على قريش برحْلتين ؛ رحلةِ الشتاء ، ورحلةِ الصيف ، ولولاَ أن للرّحلةِ خيراً مَلموساً ما كانتْ مِن النّعَمِ التى يَمنُّ الله بها على عِباده ، فقال أَبوه : رعاكَ اللهُ فى سفَرِك ، وأرْجَعكَ سالما إلى بَلدِك ، ثمّ أمرَ غِلمانَه أنْ يعطوه أربَعين حملا كانتْ مُجهزَة ، ثمن الواحدِ منها ألفُ دينار ، وناوَلهُ من الدّنانير ألفا وقال له : إنْ وجدْتَ البضائعَ رابحةً فبِعْها ، وإنْ رأيتَ سوقَها كاسدةً فأنفِقْ على نَفْسِك من هذا الألف حتّى ترتفِعَ الأسعارُ ، وتستقِيمَ الأحْوالُ ، واحذَر فى طريقِكَ غابةَ الأسَد ووادى الكِلاب ، وقطّاعَ الطُّرق ، وعجْلان وجماعته .

وكان رجلٌ يُقالُ له كمال الدين العكّام مسافراً إلى بغداد إذ ذاك ، فوصّاه بابنِه علاء الدين ، ووصّى ابنَه أن يُطيعه ولا يَعصِى له أمرا ، أما محمود البَلْخى فقد كان مَديناً لشمس الدين بألفِ دينار ، وقدْ جعَل سفَره إلى بغدادَ وقت سفَرهما ، فوصّاه شمس الدين بابنه ، وأمره أن يُعطِيَه

الألفَ دينارٍ التي عليه ، وكان له أربعةُ منازل : في مصر ، وفي الشام ، وفي حلب ، وفي بغداد ، ولما وصلوا إلى الشام أرسَل محمود البَلخيّ إلى علاء الدين ليضيفه في منزله ، فاستشار الحكام فنَعهُ أن يذهبَ إليه ، وكذلك لم يرض الحكامُ أن يذهب علاءُ الدين إلى البلخيّ في حلب ، حينما طلب إليه أن يضيفه في بيته بحلب .

وفي طريقهم بين بغداد وحلب دعاه البلْخيّ إلى وليمة ، فاستشار الحكّام فنعه أيضاً ، ولكنّ علاء الدين خالف الحكّام هذه المرة .

وذهبَ إليه ، فما لبثَ ، غيرَ قليلٍ حتى نَفَر من البلْخيّ ، وخرجَ من مجلسه غاضباً ، لأنّه عرفه رجُلا مجوسيًّا ، ولكنه يخدَعُ الناس ويُظهرُ إسلامه ، وطلبَ إلى الحكّام أن يعجّل بالارْتحالِ من هذا المكان ، تاركا المجوسيّ محمودا البلخيّ ، وكان الحكّام يكرَه انقسامَ القافِلَةِ حتى لا تكون ضعيفة أمام عدوّ أو قاطع طريق ، ولكنه رضِيَ بالفُرقة والرحيل ، تنفيذاً لإصرارِ علاء الدين

واستأنفَ المسيرَ هو وعلاء الدين وغلمانهم ، ومعهم دَوَابّهم وأموالهم ، حتى وصلوا واديًا ، فتشبّث علاء الدين بالمبيتِ فيه على كُرْهٍ من الحكّام ، الذى كان من رأيه أنْ يواصِلوا السّير ، حتى لا يتعرّضوا لمخاوف الطريقِ .

ولما جاء الليلُ هجَمَ عليهم عجْلانُ وجماعته ، وجعلوا يقتلونهم واحدًا واحدًا ، حتى لم يبقَ إلا علاء الدين ، فاحتالَ هو لينجُو بنفسه ، وخَرَج

من حُلّته ، وتقلّبَ بقميصِه فى دماء القتْلَى ، واستلقَى على الأرض ملطّخًا بدمائهم ، كأنه قتيلٌ منهم ، ثم أمَرَ عجلانُ جماعتَه أنْ يمُرُّوا بالقتلَى ، ويَستَوثِقوا بسُيوفهم أنهم قد ماتوا ، وكان عجلان هو نفسُه يستَوْثِق بسيفِه منهم ، فلمّا وصَلَ إلى علاء الدين ، ورفَع سيْفَه ليضرِبه ، لدَغتْهُ عقْرب فى رِجْلِه ، فصرَخَ وشُغِل بنفْسه ، هو وجماعته ، وكان ذلك سببًا فى نجاةِ علاء الدين من القتْلِ ، ثم حَملوا الأموالَ على دَوابّهم ، وفرُّوا بها غانِمِينَ فَرِحين .

وفى الصباح كان محمود البلخيّ المجوسيّ قد وصَلَ إلى هذا الوادى فوجد القتلَى ودماءَهم ، ووجد علاء الدين ، لايزالُ حيًّا ، وقصَّ على البَلْخيّ ما أصابَهم ، فأظهرَ له ألمًا وحُزْنًا عظيمين ، وأشفَق على علاء الدين ، فألبسَه حُلةً جديدة من عندِه ، وأركبَه بغلةً ، وسارَ به إلى بيتِه فى بغداد وهُناك أدخَلَه الحمّامَ وأكرمه ، ولكنّ علاء الدين لم يُطق مجوسيّتَه ، فتركَهُ فى بيتِه ، وخرج لا يَدْرى أين يذهَب ، حتى وجد فى طريقِه مسجدًا فدخل فيه ، ليتّخِذه مقامًا ومَأوَى ، إلى أن يفتَح الله له بابَ الفَرَج .

وبعدَ بُرْهةٍ رأى فانوسَيْنِ فى يدَىْ عَبْدَين أمامَ تاجرَين ، وهُم مُقبِلون عليه ، وسمِعَ أحدَ التاجرَين يقولُ الآخر : أما نصحتُك ياأبن أخى أن تَستَقِيم وتترك الحُمقَ وكثرةَ الحلف بالطلاق ؟

قال علاءالدين : ثم التفتَ فرآنى جالسًا جِلْسةَ انكِسارٍ وحزنٍ ومذلّةٍ ، فسألنى : من أنتَ أيها الغلام ؟ فحكيتُ له قِصّتى من أولها إلى آخرها إلى

أن قلتُ : ولم أجد إلاَّ هذا المسجدَ فاعتصمتُ به ، وأوَيْت إليه ، فقال لى : أرأيْتَ لو أعطيتُك ألفَ دينارٍ وحُلَّةً جديدة ، فهل تقبلُ منى ؟ فقلتُ : ولأىّ سَبب يكونُ منك هذا لى ؟ فقال : هذا ابنُ أخى ، زوجتُه ابنتى زبيدة ، وهو يحبُّها ولكنها تبغضُه ، وحدَثَ أن طلّقَها ثلاثًا ، فاتخذَت بنتى من ذلك الطلاق وسيلةً لاستحالةِ الرُّجوع إليه ، ولكنِّى أعطف على ابن أخى ، وأحِبُّ أن تعودَ إلى عِشْرته ، ولن يكون ذلك إلا إذا تزوّجَت غيره ثم طلَّقها ، وقد اتفقْتُ أنا وابنُ أخى على أن يكونَ ذلكَ الزواجُ من رجُلٍ غريب ، والحمدُ لله قد وجَدْناك ، ورَضِينا بك لغربتك ، وشرَف منْبتِك ، وكرَمِ أصلِك ، فتعالَ معَنا وبتْ معَها هذه الليلة بعْدَ أن نُبْرم عَقْدَ زواجها ؛ قال علاء الدين : فلم أجد مَفَرًّا من أن أرْضى ، حتى أنقذ نفْسى من الضّيقِ الذى نزَلَ بى .

وذهَبوا إلى القاضى ، فأبْرموا عندَه عَقْد الزّواج ، وجَعلوا مُقدم الصداقِ عشرةَ آلافِ دينار ، فإذا ما جاء الصباحُ وطلّقَها أعطوْه مكافأتَه ، وإن أبَى أن يُطلّقَها طالبوه أن يدفع مقدَّم صداقها ، ومقدارُه عشرةُ آلاف دينار .

وكان ابنُ عمِّ زبيدة ومُطلّقُها له جاريةٌ يُحسِنُ إليها ، وتَشْمُرُ بعطفهِ عليها ، وهى كثيرة التردد إلى زوجته المطلقةِ زُبيدة ، وكان علاء الدين من الجمال والحسن بحيث لا يَراه إنسانٌ إلا أحبّه ، فخافَ أن تُحبّه زبيدة ، ولا ترْضَى بفراقه ، فوصَّى جاريتَه هذه أن تُدَبِّرَ حيلةً تَحُولُ بين علاء الدين

وزبيـدة ، فقالت : لا تخفْ ، فلن يلمسَها بيدِه ، بل لن يراها بعينِه ، ثم أسرعتْ إلى علاء الدين وقالت له : جئتُك ناصحةً لله ولرسوله ، فقال : نَعم ، فقالت : هذه الفتاةُ مريضةٌ بالجُذام فلا تلمَسْها ، وإلاّ أصابَكَ جُذامُها وخسِرْتَ حياتَك ، فقال : ما دُمتِ صادقةً فى نصيحتِك فليس لى برُؤيتِها حاجة ، ثم فرَّت إلى زبيـدة مسْرعة فقالت لها ما قالتْه إلى علاء الدين ، فاغتاظَتْ وقالت : وهل أنا جاهلة فأتَّصِلَ بهذا المريض وأخْسَرَ جمالى وشَبابى ؟ ! إنّ ذلك ما لا يكون ، ولن أجعَلَه يقترب منّى ، وليَبِتْ هذه الليلةَ وحدَه ، وفى الصباح يمضى إلى سَبيلِه .

وجَمَعَ الزوجَيْن الحجرةُ المعدّة لهما ، فاتخذَ كلّ منهما لنَفْسِه فيها مكانًا قَصِيًّا ، ثم بدأ علاء الدين يَتْلو سورةَ يس ، بصوتٍ لذيذٍ طَرِبَتْ له زبيدة ، وخُيّل إليها أنها لم تَسْمَع فى حياتِها صوتًا شجيًّا مثله ، فارْتابَت فى خَبرِ الجـاريةِ وقالت : لا يمكنُ أن يكونَ لمريضٍ بالجذام مِثلُ هذا الصوتِ الجميل ، ولا بُدَّ أن تكونَ الجـاريةُ كاذبة ، لأمرٍ ما كلّفَت تنفيذَه ، ثم مدّت يدَها إلى عودٍ فأصلحَتْ أوتارَه ، ثم غنّت على إيقاعه فكان كذلك وَقْعُه الجميل فى نفس علاء الدين ، وعَجِبَ أن تكون مريضةً بالجذام وتحسنُ الضرْبَ على العُود ، ويكون لها مثلُ هذا الصوت الجميل ، فارتاب أيضًا فى خبَر الجارية ، ولكنه كان فى حَيْرَةٍ من أمرِه ، أكثر مما كانت زُبيدة .

وغلَبَ على زبيدة اعتقادُها كِذبَ الجـارية ، فقامت إليه واقتربَت

منه ، فقال : أبْعدى عنّى حتى لا أُصابَ بجُذامِك ؛ فزاد يقينُها بكذب الجارية ، وكشَفتْ له عن جسمها فلم يجدْ إلا نضارةً وحُسْناً ، فمدّ يدَه إليها فقالت وهى ضاحكة : لا تلمسْ جسمى حتى لا أُصابَ بجُذامك ، فكشَفَ هو عن جسمِه فبدا لها كأنّه قطعةٌ من جسمها جمالاً وحُسناً ، وضاعَت حيلةُ الجارية ، فأَتمَّ الزَّواج بينهما تلكَ الليلة .

وفى الصباح جلسَ إلى زبيدة قائلا : سأستَوْدِعكِ الله بعد ساعة ، فقالت : أكانَ هذا زواجاً أم ضيافة ؟ فقال : أُريدُه زواجاً ، ولكن أباكِ يريدُهُ ضيافة ، فقالت : أفصِحْ لى عمّا تُريد ، فقال : شرطَ أبوكِ أن أعيش معك الليلةَ ، ثم أُسَرّحكِ فى الصباح ، فإن أبيتُ ألزمَنى بدفع مقدّم الصداق ، ومقدارُه عشرةُ آلاف دينار ، ولا أملكُ منها ديناراً واحداً ، فقالت : إن كنتُ تريدُنى فأمسِكْنى عليك ، وإذا طلبوا منك الطلاقَ فقل : الشعرةُ الواحدةُ منها بألف دينار ، فإذا رفعُوا أمركَ إلى القاضى فإنك واجدٌ عندَه حكْمَ الشريعةِ الغرّاءِ ، الذى لن تَجِدَ فيه ظُلْماً ولا هَضْماً ؛ ففعلَ علاء الدين ما أشارت به زوجُه .

ولما سألَهُ القاضى : لماذا لم تطلِّق زوجَك ؟ قال : كيف أتزوّج الليلة راضيًا ، وأُطلّق فى الصباحِ مُرغمًا ؟ فقال القاضى : لا يقعُ الطلاقُ القهْرِىّ وليسَ فى مذهَبِ المسلمين إكراهُ أحدٍ على أن يُطلّقَ زوجته ، فطلب أبوها أنْ يدْفع مقدّم الصداق ، فقال علاء الدين : لا أملكُ الآن درْهما فأمهلونى ثلاثةَ أيام ، فقال القاضى : أمْهلناكَ عشرة أيام .

ثم رجع علاء الدين إلى زوجته وأخبرها ما حصل ، فقالت : أصْبِر فإنّ الصبر من عَزْمِ الأمور ، والليالِي يَلِدْنَ كل عَجِيب ؛ وبعد صلاة العشاء جَلست تغنِّي وعُودُها في يدِها يرِدِّدُ غناءها ، فسمِعَا طَرْقًا بباب دارها ، ولما فتح البابَ علاء الدين ، وجَدَ أربعةَ « دَرَاويش » فقال لهم : ما حاجتكم ؟ فقالوا : نحن « دراويش » وغُرباء ، نحفظُ الموشّحات والأشعار ، ونَرْغَبُ أن نكونَ ضيوفًا عندكَ الليلةَ ، لتكرمنا بالمَبيتِ والإيواء ، وسَماعِ هذا الصوتِ الجميل ، فقال : أمهلونى حتى أَعُودَ إليكم ؛ وذهبَ فأخبرَ زُبيدةَ فقالت : قَلْبِي يحدِّثُني أن هؤلاء « الدراويش » باب خير لنا ونعمة ، إنْ نحنُ أكرمناهُم وَآوَيناهُم ؛ فأَحضِرْهم وأَفْسِحْ صدرَكَ لهم . ولما جلَسُوا عَرَض عليهم طعامًا فقالوا : ليسَ بنا حاجةٌ إلى طعام ، ولكنَّا كُنَّا نَسْمَعُ مُغنِّيةً فأين ذهبَتْ ؟ فقال علاء الدين : إنَّها زوجَتِى ؛ وحكى قِصّتَه وقصّتَها ، ورأْيَها في إكرامِهم وإيوائهم ، فقال درويش منهم : لا تحزن ، وسأجمَعُ لكَ مقدّمَ الصداقِ من « دراويشى » وأحضرهُ إليك ، ولكنّا نحِبُّ الآن أن نسمعَ الغِناء الذى هو لواحدٍ كالغذاء ، ولآخر كالهواء ، ولغيرهما كالمروحة ، ثم سهروا معظم الليلة في سماع الغناء حينًا ، ومُطارحة الحديث ورواية الأخبار حينًا ، وباتوا حتى الصباح ، ثم انصرفوا شاكرين .

كان هؤلاء « الدراويش » هارون الرشيد ، وجَعفرا البرْمَكىّ ، وأبا نُواس ، ومَسرورا السيّاف ، وقد ساروا في المدينة على تلك الهيئةِ ،



لتعرُّف أحوالِ الرعيَّة ، حتى كانوا أمام دارِ زبيدة ، وسمعوا غِناءها ، ونغَماتِ عودها ، فرغِبوا فى دخولها ، ليعرفوا أحوال مَن فيها . وقبل انصرافهم وضع هارون الرشيد مائة دينارٍ تحت السجادة التى كان يجلس عليها ، فلما رفعتها زبيدة وجدتْها ، فقالت لزوجها : لقد وضَع « الدراويش » هذه الدنانيرَ لنا على غيرِ علم منا ، لنُنفقَها فى شئوننا ، إذ أنك شكوت لهم ما نقاسيه من ضيقٍ فى الرزق ، وذلكَ ما حدّثتنى به نفسى عند استئذانهم ، فإن عادوا مرةً أُخرى فرحّبْ بهم ، فقد جَعلَ اللهُ رزقَنا على أيديهم .

واستمر « الدراويش » يأتون كل ليلة ، ويتركون مائة دينارٍ تحت السجادة ، تِسْعَ ليال متواليات ، ثم تخلفوا عن الحضور الليلةَ العاشرة ، فقال علاء الدين لزبيدة : أرأيتِ كيف تخلّف « الدراويش » ولم يُعطونى مقدّمَ الصداقِ الذى وَعَدونى به ؟ وسيطلبُه أبوكِ غدًا منى ، ولا أدرى حينئذٍ ما أقول ، فإن استمرّت بنا العِشْرة وجاءونا فأن أفتح لهم ، فقالت زبيدة : ما أَسْرع ابتئاسَكَ وضَجرك ! أَنَسيت لهؤلاء « الدراويش » فضلَهم ؟ أليْسوا هم سببَ ما نحن فيه من الغِنى والرخاء بما كانوا يتركونه كل ليلة من الدنانير ؟ فإذا عادُوا فلا تطردهم ، فإن نفسى لا تزالُ تحدِّثنى أن خيرًا عظيما سينالُنا على أيديهم ، أما مُقدّم الصداق فأَخلص إلى الله اعتمادَكَ عليه فيه ؛ وإن ينصركم الله فلا غالبَ لكم .

وفى اليوم التاسع ، وهو صبيحة الليلة التاسعة ، أمر الخليفة هارون الرشيد أن يُحضروا له خمسين جملا من أقمشة مصرية ، بحيث يكون ثمن

كل حمل ألف دينار ، وعبْدًا حبشيا ، ثم أمر أن يرسلَ هذا العبدُ وتلك الأحمالُ إلى علاء الدين فى صَبيحةِ اليوم العاشر ، ومَعه الكتابُ الآتى :

مِن شمس الدين رئيس التجار بمصر — إلى ولَده علاء الدين أبى الشامات

السلامُ عليكم ورحمة الله

بَلَغنى أن قطاعَ الطريقِ نهبوا أموالكَ ، وقتلوا غِلمانك ، فأرسلت إليكَ مع عبد حَبَشىّ خمسين حملاً من أقمشة مصرية ، وعَشرةِ آلافِ دينار لتَدْفَع مُقدّم الصداق لزوجك ؛ وجميعُ أهلك بخير ، ونرجو لكَ عودة سالمة ..

والدكم
شمس الدين
بمصر

وفى الصباح الباكِر من اليوم العاشر طرقَ بابَ دار زبيدة طارق فأسرعَ علاء الدين إليه وفتحَه ، فوَجدَ والد زوجته وابن أخيه الذى طلقَها ، أتيا إليه فى ذلك اليوم الموعود ، ليطلّق زبيدة أو يدفع مقدّم صداقها ، أو يذهب معهما إلى القاضى ليَفصل فى هذه القضية ، ووجد مَعهما بالباب عبداً حبشيا ، معه خمسون حملا ، فناوَله الكتاب وقرأه ، فعرف كل شىء ، وكان أبو زبيدة قد سأل العبدَ ، وعرفَ منه أنه عبدُ علاء الدين ، وأن هذه الأحمالَ أرسلَها إليه والده :

التفت علاء الدين إلى والد زبيدة ، ومد إليه يده قائلا : خذْ مُقدّم صداقِ ابنتِك ، وخذ هذه الأحمالَ فبِعْها فى السوقِ ولكَ ربْحُها ، أما

رأس المال فاحفظه لى أمانةً عندك حتى تأتينى به ، فقال : لن آخُذَ شيئاً من الأحمال ، وأما المهرُ فمرجعُ الفَصْلِ فيه إلى زوْجكَ ، ولا دَخْلَ لى بينكما ، فإمّا أَخَذَته ، وإما أبرأَتْ ذمتَك منه ، ثم دخلوا الدار و نُقِلَت الأحمالُ إلى مَخْزَنٍ فيها .

وطلبَ الزوجُ المطلّق من أبى زبيدة أن يأمر علاء الدين بطلاقِها ، فقال له : ليسَ من الحقّ ولا من الدين أن يُرغَم زوجٌ على طلاق زوجتِه ، وإن أكرَهَهُ أحد وطلّقها فإنّ الطلاقَ لا يقع ، فعلِمَ أنها أفلتَتْ من يده وخرج حزيناً ، فاعتكفَ فى بيته ، ثم أصابه مرضٌ فقَضَى عليه .

وأما علاء الدين وزبيدة فقد أمنا مِن مخاوفِ الطلاق ، وفرحا بالأموالِ التى جاءتْهما مِن مصر وبينما هى تُغَنِّى كعادتها ، إذ طرق « الدراويش » الباب ، فلمّا لقيَهم علاء الدين قال : مَرحباً بمَنْ أخلفُوا مَوعِدهم ، تفضّلوا وخذوا مَجالِسكم ، ثم سألوهُ عما فعلَ فى مسالةِ زوجه فقال : لَنْ يُضام عبدٌ فى رعاية الله ، فقد أرسلَ لى والدِى من مِصرَ أموالا وأحمالا ، واصطلحتُ أنا وأبو زبيدة ، وشملَنا الاطمئنان والحمد لله . وقام حينئذٍ هارون الرّشيد إلى دورة المياه ، فانتهزَ جعفر هذه الفرصةَ وقال لعلاء الدين : كم يوماً يقطَعُها المسافر من مِصْر إلى بَغْدَاد ؟ فقال : أربعون يوما ، قال : وما عددُ الأيام التى مضَتْ على نَهبِ أموالك ؟ فقال: فقال نَحوٌ من اثنَىْ عشَر يوما ، فقال : وهَلْ تصدِّقُ أنّ خبَر حادثتك يصلُ إلى أبيك فى مصر ، ثمّ يرسِلُ إليكَ هذه الأموال فى تِلك المدة ؟ فقال لا أُصدِّق ،

ولـكِنْ سلّمنِي العبدُ الحبشيُّ كِتاباً من والدِي ، فقال : أنتَ الآنَ فى حضرةِ الخليفة هارون الرشيد ، وهو الذى ذهَبَ إلى دورة المياه ، وأنا وزيرُه جعفَر ، وهذا أبوُ نُواس ، وذلِكَ مَسْرور السّياف ، والخليفةُ هو الذِى بعثَ العبْدَ والأمْوالَ والـكِتابَ إليكَ ، فلما قدِمَ الخليفة نهض إليه علاء الدين فقبّلَ يديْه ، ودعا له باليمنِ والسّعادَة ، فقالَ له : أنْتَ رئيسُ التُّجّارِ فى بَغْدَاد ، بدلا من أَبِى زبيدة زَوجِك ، فإذا كانَ الغَدُ فاذهَبْ إلى الديوان واجلسْ فى مكانِه لتَقُوم بتصريف الأحوال ، فقال له سمعاً وطاعة وبعد أن سَهِروا ما شاءوا منْ ليلتهم فى غناء وطرَب انصرفوا مَشكُورين

وكان علاء الدين وزبيدة فى بَيْتهما جالسَيْن ، فقامتْ تَقضِى شأنا من شُئُون بيْتها ، فصَرخَتْ صرخةً واحدة ، جعلَتْ زوجَها يذهب إليها مُسرعا ، فوَجَدها جثّة هامدة ، وكانَ بيتُ أبيها أمامَ بيتِها فسمِعَ تِلكَ الصّرْخة ، وحضَر على أثرِها فعرفَ أن زبَيْدةَ ابنَته ماتتْ فجأَة ، ثمّ دفِنتْ فى حفْل رائع .

وذهَبَ الخليفةُ فى حاشيته إلى بيت علاء الدين ليُعزّيه فوجده حَزِيناً فقال له : المؤْمِنُ من صَبَر ، ورَضِيَ بالقدر ، ولكَ فى الله خيرُ العوض ، ولا مَفَرّ من الموت ، ثم قال له : يا علاء الدين . أنتَ ضيفى الليلةَ القادمة

ولما كانَ فى حضرة الخليفة ، أمر أنْ تحضُر جاريةٌ مِنْ جواريه تُسَمَّى قوتَ القلوب وتُغنّى ، لِتُسلّيَ علاءَ الدين وتُخفّف عنه أحزانه ، فلما انتَهتْ من غنائها سأله عن صَوْتها فقال : صَوْتُ زبيدة أحسَنُ ولـكنّ هذه أمْهر

منها فى الصنعة ، فقال . هلْ أعجبتْكَ ؟ فقال : نعمْ ، فقال : قد أهديتُها إليكَ ومعها أربعون جارية مِنْ جواريها ، ثم أمرَ أنْ تنقل هى وجواريها وأثاثهُنّ إلى بيت علاء الدين . فأجلَستْ هى بالباب حارسيْن من غلمانها وقالت لهما : إذا جاء علاء الدين فقولا له : إنّ سيدتى قوت القلوب تدعوك إليها ، فلما قِيلَ له ذلك قال : ما كان للمخدوم لا ينْبغِى أن يكون للخادم ، ولنْ أقرُبَ منها أبداً ، ولها عِنْدى أنْ أنفِقَ عليها كأنها فى بيتِ الخليفَة . ولما علِمَ بذلكَ هارون الرشيد ردّها وجواريها إلى قصره ، وأعطى جعفرا عشْرة آلاف دينار ، ليشترى بها من السّوق جاريةً تُعْجِبُ علاء الدين ، فأخذه إلى سُوق الجوارى اشراء جاريةٍ له تنفيذاً لأمر الخليفة

وكان لمدينةِ بغداد والٍ من قبل الخليفةِ يُدعى خالداً ، وله ولدٌ قبيحُ المنْظَرِ يُسمى حبظلم بظاظة فذهبَ هُو أيضاً إلى سوق الجوارى ليشترِى لابنِهِ هذا جارية ، إذْ أنه من القُبح بحيْثُ لا ترغَبُ امرأةٌ قبيحة أنْ تتزوجه ، وكان ذلك فى اليوم الذى ذهبَ فيه جعفرٌ لشراء جاريةٍ إلى علاء الدين .

فرّ الدلال عَلَى جعفرٍ بجارية تسمَّى ياسمين ، فجعل ثمنَها ألف دينار ، ثم مرّ بها على خالدٍ والى بغداد فزادَ هذا الثمن ديناراً واحداً ، ورجعَ الدلالُ بها إلى جعفرٍ فجعلَه ألفين ، ثم زاد الوالى ديناراً واحدا وهكذا كلما زاد الوالى ديناراً زاد جعفر ألفاً حتى بلغَ ثمنُها عشرة آلاف ، فدفعها وسُلّمتْ إليه ، ولكنّ علاء الدين أعتقها فى الحال وتزوجَها حُرة ، حتى

لا تكون أسيرة البيع والشراء ، ولما علم ابنُ الوالى أن ياسمين بيعتْ وأعتِقَتْ وتزوّجَت رجع إلى البيتِ حزيناً كئيباً ، فسألته أُمّه عما أحزَنه ، فأخبرَها ما جَرى له فى سوقِ الجوارى مع علاء الدين ، ثم اشتدَّ به الحزْن حتى ألزَمه الفراش ، يقاسى آلام الضعف والهزال .

وذات يومٍ دخَلتْ على أمه عجوزٌ تدعى أم أحمد قماقم المرّاقة ، فوَجدَتْها فى شدةِ الحزن ، فسألتْها عما أحزَنَها ، فحكتْ لها حكاية ابنها ، فقالتْ العجوزُ : لو كان ابنى أحمد قماقم السراق غيرَ مقيّدٍ فى السجن لأحضرَ لابنك الجاريةَ ياسمين ، ولَوْ كانتْ تحت طبقاتِ الأرض ، فقالت أمّ حبظلم : وماحكايةُ ابنكِ ؟ فقالت العجوزُ : أخذَ يسرِق ، ويَسرق ، ويَسرق حتى همّ الخليفةُ بقتلِه ، ليريحَ الناسَ منه ، ولكن الوزيرَ شفَعَ فيه قائلا : السجْنُ قبرٌ للأحياء ، فأمر الخليفة أن يقيّدَ فيه حتى المماتِ ، فإنْ أنتِ جعلتِ زوْجكِ الوالى يشفَعُ له عندَ الوزير ، وهذا يشفعُ له عند الخليفة ، وأطلقَه من قيْدِه وسجنِه ، وأرجعه إلى أمه وبيته ، أحضَر لابنك ياسمين وأنت مستريحة ، فقالتْ : علىّ إطلاقُ سراحه من سجْنِه ، وعليكِ أنتِ إحضارُ الجارية ، واتفقتا على ذلك .

وبلغتْ أمّ حبظلم زوجَها خالداً حديث العَجوز وما اتفقتا عليه ، فذهب إلى الوزير ورجا منه أن يشفَعَ فى إطلاق أحمد قماقم من سجْنه ، شفقة بالعجوز أمه ، ثم قال الوزير للخليفة : جاءتنى عجوزٌ لو اطّلعتَ عَلَى بؤسها وضعفِها ، وحُزنِها وبُكائها لأجبْتها إلى ماتطلب ، مهما يكُنْ شأنه

فقال الخليفة : وماذا تطلبُ ؟ فقال الوزير : لها ولدٌ يدعى أحمد قماقم ، حكِمَ عليه أن يُقيّدَ فى سجْنِه حتّى مماته ، وتقول : إذا كان قد تابَ وأنابَ فأرجعُوه إلى أمه ، فقال الخليفة : هاتوه بين يدىّ ، فلما حضرَ سألَهُ الخليفة : هَلْ ندمتَ على فعلِك ، ورجعتَ إلى ربّك ؟ فقال : تبْتُ إلى الله ، ورجعتُ إلى الله ، وندمتُ على ما فعلتُ ، وعزمت على ألا أعودَ أبداً إلى ارتكاب ما يغضِبُ ربى ، وأشهِدُكم وأشهِدُ الله على ما أقول ، فعفَا عنه الخليفَة ، وأمرَ أن يخلى سبيله ، ففرح قماقم بخروجه من سجْنِه ، وعودتِهِ إلى الحياة الحرّة ، كما فرحتْ أمّه بإنقاذِ ابنها من العذاب ، ورجوعه إليْها بعد الغياب

وذات يوم قالت لابْنها . إن والى بغداد هو الذى خلّصكَ من السجْنِ على شرطِ أن تقَابلَ المعروف بالمعرُوفِ ، والإحسان بالإحسان ، فقال : سأرُدّ الجميل أضعافاً مضاعفَة ، فمرِى بما تريدين ، فقالت . يُريدُ منكَ أن تقتلَ علاء الدين أبا الشامات ، وأن تأْتِىَ بزوجته ياسمين إلى ابنِه حبظلم بظاظة ، فقال . سأقوم بتنفيذ هذا فوْرا .

وكان للخليفة حجْرةٌ خاصةٌ ، بها مِصْبَاحٌ من ذهَب ، جَمَّله ثلاث جواهِرَ غالية ، وكان يتركُ فيها حلتَه ، وخاتمه ، ومسبحتَه ، إذا غادَرها إلى حجْرة نومه ، فاحتالَ أحمد قماقم حتى صَعدَ فوق سقفِها ، وأزالَ غطاء فتحة فيه ، وتدَلىّ منها على حبْل كان معه ، ثم سَرق الْحلّةَ والمصبَاح والخاتم والمسبَحة وعاد من حيثُ أتى ، وذهب بها إلى بيتِ علاء الدين ، ودَفنَها فى أرض حجْرةٍ من حجُراته ، ولكنهُ أخذَ المصباح لنفْسِه . وفى الصباح

ذهب الخليفةُ إلى الحجْرَة فلم يجد الأشياء المسروقة ، فغضبَ وأحضَر الوزيرَ ، وحكى له ما حصَلَ بحجرته الخاصة .

استدْعى الوزيرُ والىَ بغداد ، فحضر ومعه أحمد قاقم — وكان قد جعلَهُ رئيس الخفراء بَعد أنْ عفا عنْهُ الخليفة — وسأله عَنْ حالة الأمن فى بغداد ، فقالَ : عَلَى أَحسَنِ حال ، فقال الوزيرُ : كأَنى بك كاذِبٌ أو جاهِلٌ أو غافل ! ! ! لقدْ سُرِقَ الليلَةَ من حجرة الخليفةِ الخاصة المصباح والحُلة ، والخاتم والمسبَحة ، فأجاب أحمد قاقم . ذلك مكانٌ لا يجرؤُ أحدٌ أن يقرُبَ منه أو يصلَ إليه ، وما كان السارق فى رأيى رجلا بعيداً أو غريباً ، فدودُ الخلِّ منه فيه ، وأرى من الحزم تفتيش بيوتِ المقرَّبين من حاشيةِ الخليفة ، وفيهم الوزيرُ والوالى وعلاء الدين ، فقال الخليفة : قد أمرتُك بتفتيش ما تشاء من البيوت ، وسيكون القتْل جزاء من سرَق ، وإن كانَ أَحبَّ الناس عندى .

فتّشَ أحمد قاقم قصرَ الخليفة ، وقصر وزيره جعفَر والوالى ، والأمراء والحجّاب ، ثم ذهب إلى بيت علاء الدين أبى الشامات ، ومَعَهُ جماعَةٌ من ولاةٍ وشهود ، ولما أخبَروه بما جرى قال لهم : ولا بدَّ منْ تفتيش بيتى ، فدخلَ قاقم وجماعته البيتَ ، وقصدَ بهم إلى الحجرة التى دفَنَ فيها ماسرق ونبَشَ المكان المعروفَ له ، وأخرجَ منه الحُلّة والخاتَم والمسبحة ، وكتبوا شَهادةً بذلك ، وتمّ عليها جَمعهم ، وقبضوا على علاء الدين ، وساقُوه إلى الخليفة .

أما زوجتهُ ياسمين — وكانت حاملا — فقد أرسلَها قاقمُ إلى أمّه، وأمرَها أنْ تذهب بها إلى خاتُون زوج الوالى، ليحظى بها ابنُها حبظلم.

وهنا يلمحُ القارئُ أمرَيْن يشيران من طرفٍ خَفىّ إلى كذِب الجريمة المنسوبةِ إلى علاء الدين: أمّا أحدُهما فغيبَةُ المصباح، وأما الآخرُ فإرسال ياسَمين فى الحال إلى حبَظلم.

ولما دخلتْ العجوزُ أم قاقم على زوجة خالدٍ والى بغداد ومعها ياسَمين، فرِحت فرحاً عظيما، ونهضَ ابنُها حبظلم من مكانه، ولما اقترب منها رفعت يدها بخنجر كان معها وقالتْ: ابعدْ عنّى وإلا قتلتُكَ، فقالت أم حبظلَم: كيف تمتَنعين عن أبنى؟ لا بدّ من تعذيبك؛ وأما علاء الدين فلا بُدّ من شَنقِه، فقالت ياسمين: ولن أمُوتَ إلا على الوفاء له، ثم نزعَتْ أم حبظلم عن ياسمين ما عليها من ملابس حَريرية، وألبسَتْها ملابسَ صُوفية خشِنة، وأمرتْها أن تقومَ بالخدمةِ فى المطبخ وقالت: هـذا جزاؤكِ فأجابتها: كل شىء أرضَى به إلا أن يقترِبَ منّى ولدُك، فالموتُ أقربُ إليه منى، وقد ابتأسَتْ جوارى خالدٍ من ظُلم ياسمين، فعطفْنَ عليها وساعَدْنَها فى أعمالها خِفْية.

أما علاء الدين فقد جاءوا به إلى الخليفة، ومعهم جميعُ ما سُرِق إلا المصباح فقال: وأين المصباحُ ياعلاء الدين؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما سَرقتُ، ولا علمَ لى بشىء من ذلك أبداً. فقال الخليفة: يا خائنُ، أحْسَنَّا إليكَ فأسأت، واستأمنّاك فخُنْت، ثم أمر به أن يُشْنق



وكان في بغداد إذ ذاكَ شيخ طريقة صوفية يدعى أحمد الدنَف ، وله أتباع كثيرون ، وقد اتخذَ علاءِ الدين أبناً له في الله ، فذهَبَ إليه « السقّا » وقال له : أَدْرِكْ بعمر تتلك علاء الدين ، فهو في طريقه إلى المشنقة ، فالتفت أحمدُ الدنَف إلى حسَن شومان ، وكان حاضرًا ، وهو من عمال الخليفة في السجن ، كأنه يسأله عن رأيه في علاء الدين فقال : إن علاء الدين مظلومٌ ، وما سَرَقَ إلاّ عدُوٌّ له يريد أن يقتله ، وسيجعلُ الله نجاتَهُ على يدي ؛ ثم قام حسن شومان من فوْرِه إلى السجن ، وأَمَرَ أن يسلّموا له رجُلا محكوما عليه بالقتل عَدْلا ، ومن حُسن الحظّ أن كان ذلك الرجُل أشبَهَ الرجالِ بعلاء الدين شكلا ، فذهب به إلى جُندي الشنْق ، وأفهمه أنّ علاء الدين مظلوم حقا ، وهذا الرجل بدل منه ، وهو من المسجونين المحكوم عليهم بالقتل عدلا ، فناوَله علاء الدين ، ونفّذَ القتل في ذلك البدل الأثيم ، وانْسَلّ حسَن بعلاء الدين إلى أحمد الدنف ، فقال له : كيف تسرق أشياء الخليفة ، وقد أحسنَ إليكَ واتخذك أمينًا ؟ فقال : وربّ الكعبةِ ما سرقْت وما علمت ، فقال : ولكن أصبح من الواجبِ أن ترحل من بغداد فوراً ، فإن العاقلَ لا يَسْكُنُ إلى معاداة السلطان ، فقال : وإلى أين أهربُ من ذلك الظلم ؟ فقال : سأذهَبُ بكَ إلى الإسكندرية ، وأقيم هناك حتى أطمئنّ على راحتِكَ ثم أعود إلى بغداد .

ووصّى أحمد الدنف أن يقولوا : إنه خرج يطوفُ البلادَ إذا ما سأل عنه الخليفة ، وسار هو وعلاء خارجين من بغداد حتى وصَلا إلى حقولِ

الكرم والحدائق والبساتين ، فلقيا هُناك يهوديّين راكبين بغلتين ، وأدركَ أحمدُ أنهما يريدان بهما شرًّا ، فعجّل بقتلهما ، وأخذ ما معهما من النقود ، وكان مقداره مائتى دينار ، ثم ركبا البغلتين وسارا حتى مدينة إياسَ ، وهُناك أودعا البغلتين فى إصطبل وباتا فيها ، وفى الصباح باعا البغلتين ، وركبا من ميناء المدينة مركبًا إلى الإسكندرية ، وبينما هما ماشيان فى سُوقها وَجدَا دلّالاً يَعرضُ للبَيْع دكانًا ، من ورائه مكانٌ به مخزنٌ واسع ، وقد بلغ ثمن جميعها تسعمائة وخمسين دينارًا ، فجمّل علاء الدين الثمنَ ألفَ دينار ، فرَضِىَ صاحبُها ، وباعَها إليه وتسلّمَها .

وَجَدَ أحمدُ وعلاءُ الدين الدكان مفروشًا بالبُسُط والمساند ، ثم فتحوا المخزَن فوجَدُوا فيه قِلاعًا وساريات وحبالاً ، وصناديق وسكاكين ، وكثيراً من عُدَدٍ وآلات لصناعاتٍ مختلفةٍ ، كالجزارة والحياكة والتجارة وغيرها ، لأن صاحبَه كان سقَطِيًّا ، يتّجِرُ فى الأشياء المستعملة ، رديئةً كانت أو غيرَ رديئة ، صالحةً للاستعمالِ أو غيرَ صالحة .

أقام أحمد مع علاء الدين ثلاثة أيام ، وأمره أن يرتزق من التجارة فى هذا السّقطِ الذى وجدَه بالمخزَن ، واستأذنه أن يعودَ إلى بغداد ليبحث عن عدوّه ، الذى دبّر له مكيدةَ اتهامه بالسرقة والحكمِ بقتلِه ، وينتقم له منه ، ثم يأخُذ له من الخليفة أمرَ الأمان ، ليستطيعَ العودَة إلى بغداد .

ولما وَصل أحمد إلى بغداد سأل حسن شومان : هلْ طلبنى الخليفة فى أثناء غيبتى ؟ فقال لا ، ولم يعلَمْ عنكَ شيئًا هذه المدّة ، ولكنه جلس

يتحدثُ إلى وزيره يومًا فى شئون مختلفة إلى أن قال : أرأيتَ كيفَ قابل علاء الدين إحساننا إليه بالإساءةِ إلينا ، وائتِمانَنا له بخيانتِنا ؟! فقال جعفر : وقد لقيَ الخائنُ جزاءه ، وكان مصيرُه القَتل المَهين .

أما حبظلَم بظاظه ، ابنُ خالدٍ والى المدينـة ، فاعتراهُ مرضٌ لم يمهلْه ، وماتَ دون أن يتمكّن من غرضِـه ؛ وأما ياسمين فقد لبثَت محافظةً على نفسها ووفائها لعلاء الدين زوجها ، فتَمّت مدةُ حملِها ، ووضعتْ ذكراً رائع الجمـالِ ، فسمّتْه وحيداً ، وكان شبيهًا بأبيه ، ومِن بديع حكمة الله أن جعلَ له فى نفسِ خالدٍ والى المدينـةِ محبّةً وعطفًا ، فتَبنّاهُ وقال لأمّه : إذا سألكِ أحدٌ عن أبيـه فقولى : أبوهُ خالد ، فقالت : سمعًا وطاعة ، مخافةً منه ، وطَمَعًا فى أن يكفُله ، ثم تولّاه بالتربية والتعليم ، والتدريب على فنُونِ الضّرْبِ والطّعنِ ، حتى حذِقَ ذلك كلّه ، وأصبحَ فيـه لا يُشَق له غُبار .

ولمـا بلغَ عشرين سـنة اجتمع بأحمد قماقم واختلط به كأنه أحدُ أصحابه ، وذاتَ مرّةٍ جلسَ أحمدُ هذا وتناوَل كأساً من الخمرِ على ضوء مصباحِ الخليفةِ ، الذى كان قد سرقه ، فأعجَبَ المصباحُ وحيداً ، وطلب أن يُهديَه إليه ، فقال : لن يكون ذلك ، هذا مِصـباحٌ قتلتُ به نفساً ، فقال له : وكيف ذلك ؟ فحكى له قصـة السرقةِ ، وقتل علاء الدين فيها ، ففهِم وحيدٌ من القصة أنّ ياسمين أمّه ، وأنَّ علاء الدين والدُه ، وأنّ أحمد قماقم هذا سببُ شنقِه وقتلِه ظُلماً وعدواناً .

ولما ذهبَ إلى أمِّه وسألها عن أبيه وقِصّتِه ، أحاطتْه عِلماً بكل ماحدث وقالت : إذا قابلت أحمد الدنف ، فاسأله أن يَفِي بوعدِه ، ويأخذ لكَ بثأر أبيك ، فلما طلبَ وحيدٌ منه ذلك سأله : ومَن أبوك ؟ ومَن الذى قتله ؟ فقال : أبي علاء الدين ، وقد قتله أحمد قماقم ، فقال : ومن أعْلمك هذا ؟ فقال : جمعنى أنا وأحمد قماقم مجلسُ شراب ، فسَكِر فيه على مِصباح الخليفة ، ولما أعجبَنى هذا المصباح سألته أن يهديَه لى ، فقال : لقد قتلت فيه نفساً ، ثم قصّ علىّ قصةَ أبى وقتله ، فقال : سأشيرُ عليكَ بما تفعلُه ليقتُلَ الخليفة أحمد قماقم وأنت مُستريح ، فقال : وما ذاك ؟ فقال : إذا خرجَ خالدٌ والفرسانُ إلى الضرْب والطعن فى مجلسِ الخليفة ، فالبَسْ درْعَك ، وتقلّدْ سيفَك ، واخرج معهم ، وحاولْ أن تُجيدَ الضرْب والطعْن وفنونَ القتال حتى تُعجبَ الخليفة ، ويدعوك إليه ليُكافئك بإعطائك ما تريدُه ، فإذا سألك عما تريدُ فقُلْ : أريدُ أن تقتُل قاتِلَ أبى ، فإن قال : إنّ أباكَ خالدٌ ، وهو لا يزال حيًّا لم يمت فقُل : إنّ أبى علاء الدين أبو الشامات ، وقصّ عليه قصة المصباح واعتراف أحمد قماقم ، ثم اطلب أن يأمرَ بتفتيشه ، وأنا أخرجُ المصباحَ من جيبه ، وحينئذٍ يظهرُ الحق ، ويأمر بقتله .

خرجَ خالد ومعه الفرسانُ ووحيد ، وجعلوا يلعبُون ويعرضون على الخليفة ألواناً من الضَّرْب والطَّعن والقتال ، وكان من بينهم جاسُوس مَدْسوس ، لقتْلِ الخليفة ، برَمْيةِ سَهْمٍ طائشة ، ولكنّ وحيداً تلقَّى هذه

الرمية الموجّهة إلى صدْرِ الخليفةِ بترسِه ، وعمَد إلى راميها فأرسلَ إليه سَهمًا نفذَتْ فى صدره ، فوقع قتيلا ، ففرحَ الخليفةُ ، وأعجب بوحيد وأحبّه ، وأحضرَه فى الحالِ أمامه وقال : سَلْ يا وحيدُ ما شئتَ فإنى مُعْطيكَهُ ، فقال : أن تقتُل قاتل أبى ، فقال الخليفة : إن أباكَ خالدٌ ، وهو لا يزالُ حيًّا لم يمت ! فقال وحيد : إنّ خالدًا هذا ربّانى بعد شنقِ والدى علاء الدين ، وحكى له ما جرى بينه وبين أحمد قماقم من حديث المصباح وطلبَ تفتيشَه فى الحال ، فأمر الخليفة بتفتيشه ، وفى الحال أخرجَ أحمد الدنف من جَيْب أحمد قماقم مِصْباحَ الخليفة ، فلم يسَعْ قماقم إلا أن يَعترف بالحقيقة ، فأمر بإلقائه فى السجن مقيّدًا حتى يُصْدِرَ فيه حكمه ، وأمر أن تُنقَل ياسمين إلى بيت زوجها علاء الدين ، وأن يُردّ إليها جميعُ أملاك زوجها ؛ ثم قال لوحيد : وماذا تريد بعد ذلك ؟ فقال : أن تجمَعنى بأبى علاء الدين ، فقال : لقد شُنِقَ أبوكَ ظُلمًا فيما نعْلم ، ولكنّ القدَرَ قد يكون حفظَه من هذا العُدْوان الصارخ ، فأجرَى فى أمرِه ما لاَ نعلَم، وقد جعلْتُ لمن يبَشّرنى بأنه لا يزال حيًّا مكافأةً سَنِيّة ، وقضَيتُ له جميعَ ما يَطْلُب ، فتقدّم أحمد الدنف وطلبَ الأمانَ من الخليفة ، فقال : أنت آمِنٌ فقُل ما شئتَ ، فقال : إنّ علاء الدين لا يزال حيًّا ، وقد فدَيتُه أنا بمَنْ يستحِقُّ القتل من المسجونين ؛ أما هو فقد فرَرْتُ به إلى مدينة الإسكندرية ، وفتحتُ له هناك دكانَ سَقَطِىٍّ يرتزِقُ منه ، ولا يزالُ يعمل فيه إلى الآن ، فقال : وعليكَ أنْ تجىءَ به إلينا ، وقد أمرتُ لك بعشْرةِ

آلاف دينار ، تنفق منها حتى تُحْضِرَه ، فقال : سمعًا وطاعة ، وأخذ النقود وسافر فى الحال إلى الإسكندرية .

كان عـلاء الدين قد باعَ السقَط ولم يبقَ منه إلا قليل ، وكان من بين السقطِ خرزة ملءُ الكَف ، لها سِلسِلةٌ من ذَهَب ، وعليها طَلاَسِمُ كأرجُلِ النملِ ، فعلّقَها فى مكانٍ بارزٍ من دكانِه ، فرآها قُنصل وطلبَ إليه أن يبيعَها له بثمانين ألفَ دينار ، فقال عـلاء الدين : يفتَحُ اللهُ علينا ، فقال القنصل : أَشتريها بمائةِ ألفِ دينار ، فقال : بِعتُها فناوِلْنى ثَمنَها ، فقال القنصُل : ذلك ثمنٌ لا أَقْدِرُ على حَمْله ، فهاتِ الخرزةَ مَعَك ، واَصحبْنى إلى المركب ، وهناك أعطيك الثمن وآخُذُ الخرزة .

أَقفَلَ علاء الدين دكانه ، وأَعْطَى جارًا له مِفتاحَه وقال : إن طالت مدةُ غيبتى وجاء أحمد الدنف فأعْطِه المفتاحَ وأخبِرْهُ أنى ذهبتُ مع القنصُل إلى المركبِ لأحضِرَ ثمن الخرزة ، فقال لهُ مع سلامةِ الله ، وسأنفّذ ما أَرَدت .

وهناك فى المركَب أَصَرَّ القنصُلُ على أن يكرمَ عـلاء الدين ويَسْقِيَه شَرابًا تحية لقدومِه ، فناوَلَه كأسَ شراب به « بِنْجٌ » وما شربه علاء الدين حتى كان فى غَيْبوبة ، لايدرى فيها من أمرِه شيئا ، ثم أمر القنصل أن تقلع المركب وتسير ، وفيها علاء الدين ، حتى كان فى وسط البَحر ، بحيث لا يُرَى له ساحل ، فأعطاه شرابًا آخر ، جعلَه يُفيق من غيبوبته ، ولما أفاق قال : أيْنَ أنا الآن ؟ فقال القنصُـل : أنتَ الآنَ وَديعةٌ فى يَدِى ، حتى أوصلك

إلى قصر قيطون بمدينة جنَوة . فأسلَم الأمرَ لله وسكت .

وقابَلهم مركب فيه أربعون من تجار المسْلمين ، فهجَمَ القنصُل ورجاله عليهم ، ونهبوا أموالهم وساقوهم أسْرَى إلى مدينة جنَوة .

ودخلَ القنصلُ ومعه علاء الدين والأربعون تاجراً قَصْرَ قَيطون ، فقالت له صبيّةٌ فيه : هَلْ أحضرتَ الخرزَةَ وصاحِبها ؟ فقال : نعَم ، وأحضرتُ معهُما أربعين أسيرًا من تجار المسلمين ، ولما جاءوا بهم إلى والى المدينة أمرَ بضَرْب أعناقِهم ، فنفّذَ القتلُ فيهم واحدًا بعد واحدٍ ، حتى نهاية الأربعين ، وجئَ بعلاء الدين لينفذوا فيه القتلَ أيضاً ، فخرجَت من بين الجمع عجوزٌ وقالت للملك : أَما قلتُ لك : عندما يجئُ القنصُل بالأسْرى تَذكّر الكنيسةَ بأسيرٍ أو أسيرَيْن ؟ فقال : لو ذكّرتِنى من قبْل لأعطيتُكِ حاجتك ، ولكن خُذِى هذا الأسير الباقى يخدم فى الكنيسةِ ، ففرح علاء الدين بذلك ، لأنه نجَا من القتل ؛ ولما كان فى الكنيسة سألَ العجوزَ عما يفعَلُه ، فقالت : تأخذ فى الصباح البَغْلَةَ وتذهب إلى الغابةِ وتحمّلُها حَطباً ثم تعود ، وبعد هذا تجمَعُ أبسطةَ الكنيسة وتكنسُها ، وتغسِلَ أرضَها ، ثم تفرشُها كما كانت ، ثم تأخذ نصف إردبٍ من القمح فتُغربله وتطحَنُه وتعجنُه وتخبزُه ، ثم تأخذ وجبةً من العدس فتُنظفُها وتطحنُها ، ثم تملأ هذه الفسْقيّات الأربع ماءً ، ثم توزّعُ الطعامَ على راهبات الكنيسةِ ورهبانِها . فقال علاء الدين : يحْسنُ أن ترْجعينى إلى الملك ليقتُلَنى ، فقالت : احذر أن تُقصر فى خدمة الكنيسة

فهي حمايةٌ لك من القتل ، وقد رأيتَ ما فعلَ الملك بالأسرى من المسلمين . ثم قالت : يا مجنون ؛ ما أتيتُ بكَ إلى الكنيسةِ لتخدم ! ولكن خُذ هذا القضيبَ النحاسيّ ، ذا الصليب في رأسه ، واخرُج إلى الشارع ، واطلبْ إلى خدمةِ الكنيسةِ من قابلكَ ، عظيما كان أو غير عظيم ، ثم احضُرْ معه ، وكلفه أن يقوم بالأعمالِ التي سَمِعتَها من كنس وطَبْخ وغيرِهما .

قال علاء الدين : فما زلتُ على هذه الحالِ مدةً من الزمان ، وذات يومٍ قالت له العجوز : لا تَبِتْ في الكنيسة هذه الليلة ، فقالَ : ولِمَ ذلك ؟ فقالت : إن مَريَم بنتَ الملكِ يوحنّا ملك هذه المدينة ستزورُها الليلة ، ولا ينبغي أن تكون في الكنيسة وقتَ زيارتِها ، فقال : سمعاً وطاعة ، ولكنه أسَرَّ في نفسهِ أن يختفِيَ في مكانٍ منها بحيث يرى مَريَمَ ولا يَراهُ أحدٌ .

ولما حضَرتْ مريمُ كان في صحبتِها صبيَّةٌ تقول لها : آنَسْتِ الكنيسةَ يا زُبيدة ، فحَدّق علاء الدين في زُبيدة هذه فوجدها زوجتَه التي ماتَتْ على أثرِ صرخةٍ عاليةٍ في بغداد ؛ ثم قالت لها : يا زُبيدةُ ، غَنِّي لنا بعضاً من الوقتِ بصوْتكِ الجميل ، فقالت : لن أغنِّي حتى تَفِي لي بما وعَدْتِنِي به ، فقالت : وما هو ؟ فقالت : وعَدْتِني أن تجمَعِيني بزوجي علاء الدين أبي الشامات ، فقالت مريم : قومي غنِّي ، فإن زوجَكِ هنا في الكنيسة ، ويَسْمعنا الآن ونحنُ نتكلم ؛ وما بدأتْ زبيدة تغنِّي حتى هجَمَ

عليها علاء الدين وضمّها إلى صدره ، فوقعا من فرط سرورهما مغشيًّا عليهما ، فرشّتهما مريم بماء الورد حتى أفاقا ، وقالت لهما : أهنّئكما بجمع شملكما ، فقال علاء الدين : اجتمعنا على محبّتك والسرور بلقيانا ولقياك ، ثم التفت إلى زبيدة وقال : أنتِ كنتِ قد متّ ودفناكِ ، فكيف حييتِ وجئتِ إلى هذا المكان ؟ فقالت : لستُ أنا التي ماتت ، ولكن اختطفني جانٌّ وطار بي إلى هذه الكنيسة ، والتي ماتت ودفنتموها جنّيّة تماوتت حتى دُفِنت ثم نبشت قبرها وخرجت .

قال علاء الدين لمريم : ولأى شيء فعلتِ بي وبزوجي هذا وجئتِ بنا إلى هذا المكان ؟ فالتفتت إلى زبيدة وقالت : ألم أخبرك أني موعودة بزواجي من علاء الدين ، ووعدتك أني سأجمعك به ، ورضيتُ أن أكون لكِ ضرّة ، لي ليلة ، ولكِ ليلة ؟ فقالت زبيدة : بلى ، وتمنيتُ أن يكون ذلك سريعًا حتى أرى زوجي ؛ ثم التفتت مريم إلى علاء الدين وقالت : هل تقبل أن أكون زوجةً لك ؟ فقال : ولكنّكِ غيرُ مُسلمة ، ولستِ كتابيّة ، فقالت : حاشَ لله أن أكونَ غيرَ مُسلمة ، إني مؤمنة بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم منذُ ثمانيةَ عشرَ عامًا ، فقال : ولكني أحبّ أن أرجع إلى بلادي ، فقالت : اسمع منّي ما أقولُ : أهنّئكَ يا علاء الدين بولدٍ لك في بغداد يسمّى وحيدًا ، وهو الآن في ديوان الخليفة ، وفي وظيفتك التي كنتَ فيها ، وقد ظهر سارقُ أشياء الخليفة ، وهو أحمد قماقم ، وطُرِح في السجن يُقاسِي ألوان العذاب ؛ واعلم أني أنا التي وضعتُ الخرزة في



دكانك ، وكلّفتُ القنصُلَ أن يحضرَكَ وإيّاها ، لأنه مشغوفٌ بحُبّي ، وجعلتُ ثمن زواجي منه أن يجيء بك إلينا ، حتى تلتقِي بزوجك زبيدة ، وأنا التي أرسلتُ العجوز إلى الملك لتُخَلّصَكَ من القتل ؛ فقال : جزاكِ اللهُ كل خير ، وما فائدةُ هذه الخرزة ؟ فقالت : هذه الخرزةُ من كنزٍ مرصود ، ولها مزايا ومنافع ستعرفُها بعد ؛ وقمت في يَدِ جَدّتي لأبي ، وكانت ساحرةً تقرأُ الرموزَ السحرية ، وقد وَهَبَتْ لي هذه الخرزة ، وعرّفتني منافِعها ، وقد سألها أبي عن طالِعي فقالت له : ستَموتُ قتيلاً ، والذي يقتُلُك أسيرٌ من مدينة الإسكندرية ؛ فحَلفَ أبي أن يقتُلَ كلَّ أسيرٍ يجيء منها ، وقتَلَ في سبيل ذلك عَدَدَ شعرِ رأسِه الأصْلع ؛ وقد سألتُ جدّتي عن طالِعي أيضاً فقالت : لا يتزوّجُكِ أحدٌ إلا علاء الدين أبا الشامات ، فعجِبْتُ لذلك ، وسكتّ صابرة حتى آنَ الأوان ؛ فتزوّجَها علاء الدين ، وطلبَ إليها أن تذهبَ به وبزوجه إلى بلاده ، فقالت : ما دمتَ تريدُ ذلك فتعالَ مَعي ، وأجلسَتْهُ في حجْرةٍ وأقفلتْها ، ثم دخلَت على أبيها ، فلمّا رآها دعاها إلى أن تجلِسَ بجوارِه ، لأنه يشعُر بضيقٍ في صَدره ، ثم شرِبَ وسكِر ؛ وكانت مريَمُ قد وضَعَتْ بنجًا في قدحٍ من الأقداح التي شرِبَها ، فأُغمِيَ عليه ، وتركتْهُ مستلقِيًا على قَفاه ، ثم أحضرَت علاء الدين وقالت : هذا خَصمكَ في غيبوبتِه فافعلْ به ما تشاء ، فأوثق علاء الدين كتافَه ، ثم أيقظتْهُ ابنتُهُ ، فقال : هلْ يصحّ أن تفعلي هذا بأبيك ؟ فقالت : لا نزالُ نحترمك ، فإن آمنْتَ وأسلَمتَ أَمِنْتَ وسلِمْت ،

وإلّا فقد حقّ عليكَ القتل ، وما ظلَمناكَ ولا عققناك ؛ ولما أَبَى أن يُسلِم ذبحهُ علاء الدين بخنجرِه ، وكتبَ كل هذا فى ورقةٍ تركها بجانبِهِ ؛ وجمَعت مريم وزُبيدة وعلاء الدين ماشاءوا من الأموال ، ثم حَكّت مريمُ جانِب الخرزة الذى به صورة سَرِير ، فحضَر أمامَهم سريرٌ جلسوا عليه ، وطار بهم إلى وادٍ بعيد لا نباتَ فيه ولا ماء ، وحَكّت مريمُ جانباً آخر من الخرزة وقالت : لينتصِبْ هنا صِوَانٌ نسكُنُ فيه ، فكانَ الصوان كما أرادت ، ثم حَكّت جانبَين من جوانب الخرزة وقالت : بحقّ مَن خلقَ الأرض والسماء ، أَوْجِدْ لنا يا ربّ فى هذه الأرضِ الميتةِ أشجاراً ونباتاً وأنهاراً ، ومائدة نأكل منها حتى نَشبعَ ، فكان ما طلبَتْ ، وتوضَّأُوا وصَلُّوا ، وأكلوا وشَرِبوا ، وأقاموا فى هذا المكان يستريحون .

دخَلَ ابنُ الملك على أبيه فوجده مَذبوحاً قتيلاً ، ووجد بجانبهِ ورقةً فأخذَها وقرأَ ما فيها ، وعرف منها ما حَصَل ، فجَعَل يبحثُ عن أُختِه مريَم فلم يجدْها ، وسألَ العجوزَ عنها فقالت : ما رأيتُها ، فنادَى عَسْكَرَه وجَمَعَ جُنودَه ، وخرَجَ بهم سائراً فى الفضاء ، حتى رأَوْا علاء الدين وزَوجتَيه فى صِوانهم ، فنادَى من فَرْطِ سروره بلِقائهم لينتَقِم منهم : نحنُ من ورائكم ، ولستُم من سُيوفِنا بناجين ، فنقَلَ الريحُ هذا النّداء إلى أختِه مريَم ، فسألَتْ علاء الدين عن مَبْلغ فروسيّته ولقائه الأعداء ، فقال : لا أعرِف شيئاً ، فحكّت بإبهامها مكاناً بالخرزة به صورةَ فارس ، وإذا بفارس بين يديْها ، لا يجرؤ إنسان أن يلتقى به فى قتال ، فهجَمَ على

جيشِ أخيها ، وجعَلَ يضرب فيهم بسيفه حتى ولَّوْا مهزومين ، ثم ركبوا سريرهم وذهبوا إلى الإسكندرية ، كما أراد علاء الدين ، ونزلوا بالدكان والمخزن ؛ وفى ذلك الحين قدِمَ عليهم أحمد الدنف من بغداد ، وجلَس يبشّرُه بولدِه وحيد ، الذى بلَغ عشرين سنة ، ويقومُ بعملِ أبيه فى وظيفتِه ، وحكَى لهم جميع ما جرى ، وحكَى علاء الدين إليه أيضاً ما وقع له ، حتى رجَع مع زوجتَيه إلى الإسكندرية ؛ ثم قال أحمد الدنف : إنَّ الخليفةَ يطلبُك يا علاء الدين ، ويحبُّ أن يلقاكَ ، فقال : لا بأسَ فى ذلك ، ولكنّى أحِبُّ أن أزورَ أبى وأمِّى فى مِصْر ، ثم نُسافر جميعُنا إلى الخليفة فى بَغداد .

وركبوا جميعهم السريرَ ، وطارَ بهم إلى مِصْر فى الدربِ الأحمَر ، فاجتَمع بأهْله ، وفرِحوا جميعُهم باللّقاء بعدَ طولِ الغَيبَة .

وبَعدَ ثلاثة أيام عرضَ علاء الدين على أبيه وأُمّه أن يَرحَلاَ معه إلى بَغداد ، فرضِيَا بذلك ، وسافَرُوا جميعُهم ؛ وهناك نزل علاء الدين وزوجَتاه وأبوهُ وأُمّه فى بيتِه ؛ ثم ذهبَ أحمد الدنف إلى الخليفة ، وأخبره بقدوم علاء الدين ، وجميع ما حدث له ، ففَرِح فرحاً عظيما ، وأحضرهُ بين يديه ، وأمر أن يحضِروا أحمد قماقم من سجنِه ، فلما حضَرَ فى قيدِه ، قال الخليفة لعلاء الدين : قُم واقتصّ منه كما تشاء ، فقام إليه وفصَلَ رأسه عن جسدِهِ وقال : ولاَ تحسَبَنّ اللّهَ غافِلاً عمّا يَعمَلُ الظالمونَ ... ثم منَحَ الخليفة علاء الدين وأهلَهُ منَحًا قيّمة وعاشوا فى أرغدِ عيْشٍ حتى جاء أجلُهم ، وانتقَلوا إلى رحمةِ ربّهم .



الصَّيّادُ والعفريتُ

كان في قديم الزمانِ صيادٌ بلغَ مِن العُمرِ أرذَلَه ، وله أولاد ثلاثة وزَوجة ، وهُوَ يستَمِدُّ قوتَه وقوتَ عيالِه مِنْ شبكتِه ، وكانَتْ لا تمدّه إلا بالكفاف ، إذْ قدِرَ عليه رزقُه ، ولم يكتَسِبْ له الغِنى والثراء .

ذهبَ يوما إلى شاطىء البحرِ في وقت الظهيرَة ، وكانَ من عادتهِ ألا يلقيَ شبكتَه في البحرِ إلا أربعَ مرات ، ثم يتناول منها ما تجودُ به قليلا كان أو كثيرا ، ولما ابتلع الماء شبكته أولَ مرة ، وجذبَها إليه وجدَها ثقيلةً لا تُطاوِعُه ، فربَط حبْلها الذي يُمسِكها في وَتدٍ مثبتٍ في الشاطىء ، وخلعَ ملابسَه ، وغطَسَ في الماء ، وجعلَ يعالجُ الخروج بها حتى ألقاها على الشاطىء ، تحملُ في جَوفِها حمارا ميّتا ، فأصابَه غمٌّ عظيم وأخذَ يحوْقِلُ ويَسْترجِعُ ، ولكنّ الأملَ في رِزقِهِ ، لا يزالُ يساورُه

ولما استراحَ قليلا خلصَ الشبكةَ من حِمارها ، وَرماها فى البحر مرةً ثانية ، ثم جَذبَها فاستعْصتْ عليه أشدّ مِمّا كانت فى الرميةِ الأولى ، فنزلَ وأخرجَها ، فألفاها قد التقمتْ حُبًّا كبيرا ، به كثيرٌ من الرمل والطين ، فابتأسَ وحزِن ، وقال : يا حرقَة الدّهرِ كُفِّ أو عِفِّ ، وتضرعَ إلى اللهِ أن يُيسَّرَ له ما قدّرَه ، من رزقٍ قليلٍ أو كثير . ثم ألقى ما علِقَ بالشبكةِ وعصَرها ، ورماها مرة ثالثة ، ثم جرّها إليه فطاوعتْه ، ولكنه لم يجدْ فيها إلا قليلا من حجارةٍ وعِصِيّ ، فهزّ رأسَه هِزّةَ عجبٍ وأسى ، ثم رفع رأسَه إلى السماء قائلا :

اللهمّ إنكَ تعلمُ أنى لا أرْمِى شبكتِى فى البحر إلا أربعًا ، وقد رميتها ثلاثا ، لم أُرزَقْ فيها بزادٍ لعيالى ، الذينَ يرتقبونَ أوبتِى ، ارتقابَ السارى ضوءَ القَمر ، اللهُمّ إنكَ أرحمُ بهم منّى ، وبيدِكَ الخيرُ ، وأنتَ على كلّ شىءٍ قدير .

ثم طرح الشبكةَ مرةً رابعة ، وصبَر حتى استقرّتْ ، ثم أخرجهَا فوجدَ فيها قُمقما من نُحاسٍ أَصفرَ مَختوماً بخاتَمِ سُليمانَ عليه السّلامُ ، ففرِحَ به ، إذْ قدرّ ثمَنَه فى نفسِه عشرةَ دنانيرَ ، ولكنهُ أصرّ على فتحِه ، لعلّه يجدُ فيه قطعا من ذهبٍ تكونُ منبَعَ غِناهُ ، فجعلَ يعالجُ كشفَ غِطائه المثبّتِ بالرصاصِ حتى انفرجَ عَنهُ ، وإذا بدُخانٍ يمُور ويَصّاعدُ فى السماء ، وينتَشِرُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشّمال حتى ملأَ الدنيا أمامَه .

وما كاد العجبُ يملأَ جوانبَ نفسِه ، حتى تحولَ الدخانُ إلى مارد

من الجنّ رأسه فى السماء ، على مَدّ البَصرِ ، ورِجْلاه فى الأرضِ كأنّهما سارِيتان ، فقفَّ شعرُ رأسِه ، وجَفّ ريقُه فى فمِه ، وارتعدَتْ فرائِصُه ، ودارتْ من الخوفِ عيناهُ فى رأسِه . ثم انحنَى العفريتُ عليه قائلا :

لا إلهَ إلا الله ، سليمانُ نبيُّ الله ، لا تقتلْنِى أيها النبيُّ الصادق ، فلنْ ترانى أعصى لكَ أمرا .

فاستجمعَ الصيادُ قُواه وقال :

ماذَا تقولُ أيها الماردُ ؟ إن سليمانَ مضَى على موتهِ ألفٌ وثمانمائة سنة ، ونحنُ الآنَ فى غيرِ زمنهِ ، ونَدينُ بدينٍ غيرِ دينِه ، ونؤمنُ بخاتَمِ الأنبياء منْ بَعدِه ، فما شأنُك ؟ وكيفَ أقمتَ فى هذا القمقمْ ذلكَ الزمنَ الطويلَ الغابر ؟

فقالَ المارد فى نَغمة المطمئن الفَرِح ، والقوِىِّ المنتصِر :

جاءتْكَ البُشرَى يا صياد ، ففرحَ وقال :

لعلّكَ تحمِلُ إلىّ سعادةَ الغِنى والبَسطةِ فى الرزق .

فقال المارد : أحملُ إليكَ صنوفا من الموتِ والفناء لتختارَ منها ما تشاء .

فقال الصياد : وهذا جزاء إحسانِى إليكَ ، وَإطلاقِكَ من السجْنِ الذى كنتَ فيه ؟!!

فقال المارد : لا شىء عِندى لكَ غَير ما سَمِعتَ ، فاخترْ لنَفسك المِيتَةَ التى تراها ، فإنّى معجلٌ بها الساعة .



فقال : أليسَ من الحقّ أن أعرِفَ خطيئةً اقترفتُها ، حتى أستَحقّ الموتَ من أجلها ؟ !

فقال المارد : لا أعرفُ لك خطيئة أو إثما ، ولكنّه القدرُ يُعنِتُ المُحسنِين ، ويَبتَلِي المؤمنين ، لحكمةٍ لا نَدرِيها فى كثير من الأَحْيان .

فقال الصياد : إن الابتلاءَ الذى خَفيتْ حِكمَتُه يكون مَصحوبا بعلةٍ ظاهرةٍ بادِية ، كأنْ يخوضَ المرءُ البحرَ مُبتَغِيا رزْق الصّغارِ من أبنائه ، فيغرقَ ويموتَ ، أما الابتلاء بالموتِ وحِرمانِ صِغارِ الأولادِ من عائِلهم وكافِلِهم فحكمتُه خفية ، وأما علةُ الموتِ الظاهرةُ التى صاحَبتْ هذا الابتلاءَ فإنَها باديةٌ فى أنه غَشِىَ موطِن الخطَر ، وإن حالِى معك غيرُ هذا ، فلمْ يكُنْ مِنّى إلا أنّى أحسنْتُ إليْكَ ، وأنا فى مَنأًى عن خطرٍ يَحيقُ بِى .

فقال المارِدُ : العلةُ واضِحةٌ ، وستعلَمُها مما أَقُصُّ عليكَ .

فقال الصيادُ . قلْ ما بَدا لكَ ، والأمر للهِ الذى خلقَنِي وخلقَكَ .

فقال المارد : أنا صَخرٌ الجنىُّ ، عَصيْتُ سُليمانَ وغوَيْت ، وكفرْتُ به واستكبرْت ، فقادَنِي إليه وزيرُه آصَفُ بن برخيا ، ودَعانِي إلى الإيمانِ به وطاعتِه ، فأصرَرْتُ على كفرِى وعِصيانِي ، فحَبَسنى فى هذا القُمقم ، حتى يَحبِسَ عن الناسِ بلائِي وشَرّى ، ثم أوثقَ غِطاءه ، وطَبَعهُ بخاتَمِه ، ورمَى القُمقمَ بى فى قاعِ البحرِ ، فمكثْتُ فيه أعواما وأعواما ، لا أجدُ فيها حيلةً أُفلِتُ بها من سجْنى ، فعقدتُ العزمَ على أنْ أُغنِيَ إلى الأَبدِ مَنْ

يُنجيني ، ولبثتُ على هذا العزمِ مئاتٍ من الأعوامِ ، فما وجدتُ إلى النجاةِ سبيلا ، فقدْ قلتُ في نفسِي : إنْ مَن أنجانِي فتحتُ له كنوزَ الأرض ، وقضيت له كلّ ما يُريد ، وارتقبتُ أربعمائةِ عام ، فما نجانِي أحد ، فثارت ثورةُ الغضبِ في نفسِي وقلت : مَن فتح الساعةَ بابَ سجْني هذا فتحتُ له أبوابَ الموتِ ، يختارُ منها ما يشاء ، وهأنتَ ذا قد فتحتَ باب القمقم ، فاختر لنفسِكَ كيفَ تموت ؟

فقال الصياد : ولكنّ المرءَ يُجزَى بنيَّتِه ، لا بنيّةِ غيرِه ، وأنتَ الذي نويتَ أنْ تقتُلَنِي ، فكيفَ تلزمني نيَّتكَ ، وما قدّمتُ لكَ إلا الخيرَ والنجاة ؟ ! !

فقال المارد : ما مِنْ ذلكَ بُدٌّ ، ويَظهرُ أن الإنسانَ طبعَ على العملِ رهبًا ، أكثر مما طبعَ على العمل رغبًا ، فساقكَ الطبعُ العام أو الجَدُّ العاثِر إلى أن تخلصَنِي وأنا أنذِر ، ولم تخلصْني وأنا أبَشّر ، وذلكَ ما كُتبَ عليكَ ، وقُدِّرَ لك .

فقال الصياد : إنّ مع العُسْرِ يُسْرا ، ومع الضيق فرجا ، ومع العقوبةِ عَفوا ، فإذا شفعْتَ يدى عِندكَ بتنجيتك ، عفوْتَ عنى ، وخليْتَ سَبيلى ، إلى أولادِي ، الذينَ لا كافلَ لهمْ غَيرِى !

فقال الماردُ : ذلِكَ ما لا يكونُ ، وسأترك لكَ فُرصةَ التفكير في اختيار ما تشاء من ألوان الموتِ المحتْوم .

فقال الصيادُ في نفْسِه : لقدْ قال الأول : اتق شرّ من أحسنتَ إليه ،

وليسَ لِيَ الآن إلا أن أحتالَ لنَجاتِي ، ولو كانتْ بهلاكِ هذا الماردِ الذى كفرَ بنعمة ربه ، ثم قال للعفريت : بالاسم الأعظمِ المنقوش على خاتَم سُليمانَ أن تصدقَنى فيما أسألُكَ عنه ، فاضطربَ العفريتُ لهذا القسمِ وقال : قلْ ما شئتَ فإنى مُجيبُكَ عما تسأل .

فقال الصياد : لا أكادُ أصدّقُ أنكَ كنتَ فى هذا القمقم على صغره وضيقه ، وعِظَم جسمِك وضخامَتِه ، ولا بُدّ أن تكونَ من مردَةِ هذا المكانِ ، وتنتَحل العللَ لقتْلِي .

فقال المارد : وكيفَ تصدقُ أنى كنت فيه ؟

فقال : أن أراكَ بعينَيْ رأسِي داخلَه ، وبعد ذلك تكونُ فى حلٍّ من قتلِي ، أو العفوِ عنى .

فقال المارد لكَ ذلك ، ثم انتفَضَ فصارَ دُخانا يتسرّبُ داخِل القمقم ، وما كاد يدخلُه ، حتى أطبق الصيادُ عليه غطاءه ، وأحكم وضعه وتثبيتَه ، ثم ناداه : أيها الماردُ الكافرُ بنعمةِ مولاه ، لقد أوقعكَ كفرُكَ بالنعمةِ ، فى ذلك السجْنِ الذى لا تَبْرحهُ ، حتى قيامِ الساعة ، وسأذيعُ خبركَ ، وأحذّرُ الصيادين من قمقمك حتى تلبثَ فيه أبدَ الآبدين ، فندِم العفريتُ وتضرّعَ إلى الصيادِ قائلا : أحْسِنْ إلىّ بالإفراجِ عنى أحسنْ إليكَ .

فقال الصياد : أنْ أحسنتُ إليكَ لقيتُ منكَ ما لقيَهُ الحكيمُ دوبان من الملكِ يونان ، فقال المارد : وكيف كان ذلك ؟ فقال الصياد :

كانَ فى العصور الخاليةِ ملكٌ بمدينةٍ فى الفرس يُدعَى « يونان » ،

أصابَهُ بَرصٌ شَوَّه خَلقَه ، وعكّر هناءتَه ، وطامَن مِنْ كبريائه وعزّته ، ولمْ يُجْدِ ما أنفقه مِن مالٍ ، ومَنْ أحضرهم من الأطباءِ والحكماء في شفائِه شيئًا ، حتى استيأسَ وظنّ أنه لنْ يَقدرَ على إبرائِه من هذا المرضِ أحد .

وكان قد وَفدَ إلى تلكَ المدينةِ حَكيم عمرَ طويلا ، وحذِقَ الطبَّ والحكمة ، ومَهَرَ في معرفةِ خواص النباتِ ، وما له من نفعٍ وضرر ، ولما عَلِمَ مرض الملك « يونان » وعجْزَ الأطباء والحكماء عنْ شفائه مِنْه ، لبِسَ أفخَرَ ما عندَه ، وذهبَ إليه في مجلسِه ، فقبّل الأرض بينَ يدَيْه ، وجلس بعدَ أنْ أذِنَ له ، فعرّفَ الملكَ بنفسِه ، ثم قال : لقدْ عَزّ عليَّ وأنتَ قلبُ شَعبكَ النابضُ ، أن يحزُنَكَ مرضُك ، وتيأسَ من علاجِه ، فجئت إليكَ مَدفوعا بما أحملُه لكَ مِنْ ولاءٍ ومَحبة ، لأبرئَكَ منه ، دُونَ أنْ تَسقِيَ دَواء ، أو يَمسَّ جِسمَكَ مَرهم ، فاستَبشَرَ الملكُ وقال : ولئنْ فعلتَ هذا فلكَ عِندِي كل ما تتمنّى ، وكنتَ مِنِّي بمنزلة نَفْسِي ، وكانَ لكَ فضلٌ على الأيام لا ينسَى ، فقال الحكيمُ « دوبان » ذلكَ واجبٌ علينا أداؤُه ، وإنْ فَنِيتْ أنفسُنا في سبيله ، ثم استأذنَ الملك أن يقومَ لإنجازه ، فأذِنَ له ، وأغدَقَ عليه كثيراً مِنْ ماله ، ووَكل به جُنداً تحفّ به إلى دارِه ، وهناكَ عمِلَ صَوْلجانا وكرَة ، وجعلَ في مقبضِ الصوْلجان ما شاء من الأدْوية ، بحيثُ تتسرّب إلى جِسم مَن يُمسكهُ ، ثم ذهبَ إلى الملكِ فوجدَه جالسا على عَرشٍ عَظيم ، في بهوٍ فسيح ، فرشتْ أرضُه بالطّنافسِ الوَبِرَة ، وقد جلسَ أمامَه الوزراء والحاشية ، في استدارة الهلالِ وتألقِه ،

فقبّلَ الأرض بينَ يديه ، وأجلسَهُ الملكُ عن يَمينه ، وبالغَ فى الحفاوَة به ، ثم قال الحكيم دوبان لِلمَلكِ بعد أنْ عرف الحاضرين به : هذه كرةٌ ، وهذا صَوْلجان ، أعدَدْتُهما لتلعبَ بهما فِى مكانٍ فَسِيح ، مع الكَدّ والإجهاد ، حتى يَعرقَ كفُّكَ ، فيَسرِى الدّواء من مقبضِ الصولجان إلى جسمِكَ ، وبعد ذلك تذهبُ إلى الحمام فتستحِم ، ثم تذهب إلى سريرِكَ لتنامَ وتأخذ راحتك ، وستَهبُّ من نومِك ، وقدْ برِئتَ بعونِ اللهِ وفضله ، ثم استأذنَ الحكيمُ أن يَنصرفَ إلى داره ، فأذنَ له .

ونفذ الملكُ ما أشار به الحكيمُ دوبان ، فلما أشرقَ الصباحُ وهبّ من نَومه ، لم يجدْ أثرا للبرصِ فى جسْمه ، فاغتبطَ الملكُ وأشرقَ قصرُه بنورِ الانشِرَاح والبهجَة ، وذاعَ ذلك النبأُ فى المدينة ، نخفقَتْ أعلام السرور على الدور ، وماجَ الشعبُ فرحا بشفاء المليكِ .

ثم دعا الملكُ الحكيمَ دوبان فأجلسَهِ بجواره ، على مَشهدٍ من وزرائه ، وقرّبَه إلَيْه ، وأدْنَى إليه منزلتَه ، وأسبغَ عليه مالَه ونِعَمَه ، وجَعله أولَ المقربين لَدَيه .

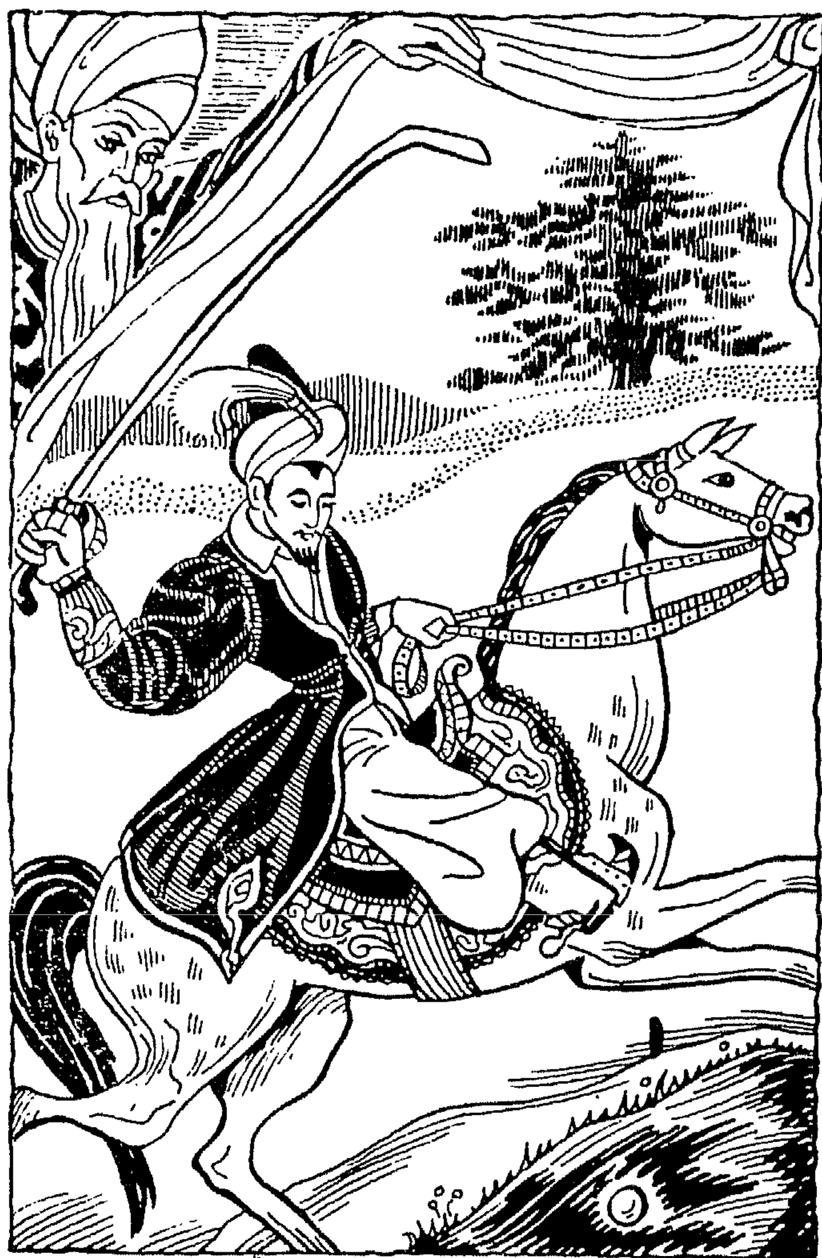
فارتْ نَزْوَةُ الحسَدِ فى نفسِ أقبَح الوزراء شكلا ، وألأمهم طَبعا ، وأخبثِهم نزعة ، وأشدهم حِقدا وسَخيمة ، فوسْوسَ إلى الملكِ وقال : العاقلُ من نظرَ فى العواقب ، وعَمِل لها حتى يأمَن شرها ، ومنْ خدعتهُ ظواهرُ الأمور جَهلِ بواطِنَها ، وحاقَ به خطرُها ، وإنّى أخْشَى عَليكَ من الحكيم دُوبان ، الذى قرّبتَه ، وركَنْتَ إلى الثقةِ به ، ولا إخالُه إلاّ

عَدُوًّا فى ثيابِ صَديق ، فقال الملك : لقدْ دفعكَ الحسدُ إلى أنْ قلتَ فى الحكيم دوبان ما قلتَ ، وما عهدْناه إلا أخًا مُخلصا ، وحَكيما ماهرا ، قد لا يكونُ له نظيرٌ فى الدنيا ، وقدْ أبرأنى من المرض ، دون أنْ أُسقَى دَواء ، وما سَمِعنا بهذا من قبل ، فقال الوزير : ذلكَ مَوطنُ الخطر ، فإن الذى يشفيكَ دون دواء تتناوله ، يستطيعُ أن يقتلَكَ بشىء تَشَمّه ، أو تنظرُ إليه ، ولا إخالُه إلا جاسوسا جاءنا ليقضِيَ حاجةً فى نفسِ أُمتِه ومَلِكه ، وأخْوف ما أخافُ مِنه ، أن ينالَ حياتكَ بمكروه أو أَذى ، فلو قتلتَه ، لاسترحْنَا من خَطرِه ، فقال الملك : لو منحتُه نِصف ملكى لكانَ قليلا بجانبِ ما قدّمهُ لى من المعروفِ ، ولئن قتلتُه لندمت كما نَدِم السندبادُ على قتلِه البازى ، فقال الوزير : وكَيفَ كان ذلك ؟ فقال الملك يونان :

كان فى سالفِ الأزمان أحدُ ملوكِ الفرس ، وكانَ مُغرما بالصيدِ والقنص ، وله باز ربّاه على عَينِه ، واصْطَنَعه لنفسِه ، يصحبُه فى خروجه للصيدِ ، فيعينُه على اقتِناص ما أَصابَه ، من طيرٍ أو حيوان ، وقد أَلِفَ كلٌّ منهما صاحبَه ، فأَحبّه الملِك ، وأَحبّه بازُه.

وذات يوم خرجَ الملِكُ فى ثُلةٍ من عساكرِ الصيدِ إلى البرية ، فحبسُوا بينهم غزالا يعجِبُ الناظرين ، فنادى فيهم الملكُ : أن احذَروا أن يُفلت الغزال من بينكم ، ومَن فرّ الغزالُ من ناحيته قتلتُه ، وأنا فى هذا معكُم ، وعبثا حاولَ الغزال أَن يهرُبَ من ناحية العسكر ، إذْ كانوا على يقظةٍ وحَذر ، فتغفّلَ الغزالُ الملكَ وفرّ من ناحيته ، وانطلق

مع الريح فى البرية ، وعزّ على الملكِ أن يكونَ أضعفَ من عَسكرِه ، أو مُقصراً فى واجبٍ مَفروض أمامهم ، فركبَ جَوادَه ، وأرخى عنانَه ، وطارَ به من خلفِه ، والبازُ طائر من فوقه . وأسرع البازُ ولحق بالغزال ، وجعلَ يضربُ عَينيْه بأجنحتِه ، فعوّقَه عن الجريِ السريع والهرب ، وأمسكَهُ الملكُ وذبحه ، وأخذه معه ، وكان الحرُّ قد اشتدّ أُوارُه ، وبلغ العطشُ بالملكِ وجوادِه شدّتَه ، وما كاد يرى شجرة يتقاطرُ الماء منها ، حتى أَوى إليها ، ليستريحَ فى ظلها ، ويُسقى من مائها ، وأخذَ الملك طاسا وملأه من ذلكَ الماء المتَقاطِر ، ووضعه أمامَه ، ليشربَ ماءه ، فأسْرَعَ البازُ وضربَه بجناحه فكفَأَه ، وأراقَ ماءه ، فملأهُ الملكُ ثانيةً ووضعهُ أمامَ الجواد ، فأسرع البازُ أيضاً ، وقلبَ الطاسَ وهَرَاقَ الماء ، فملأه ثالثة وقدمَه للباز ليشرَب ، ففعلَ به ما فعلهُ فى المرة الأولى والثانية ، فاحتدمَ الملكُ غيظا وغضبا ، وجرّدَ سَيفَه ، وضربَ البازَ به ضربةً جعلته قِطعتين ، فحرّكَ البازُ رأسَهُ مُشيرا إلى أعلى الشجرة ، والتفت الملكُ إلى مَرمَى نظره ، فرأى فوقَ الشجرةِ حيةً ضخمة ، يسيلُ السمُّ مِن فيها ، فأدركَ أن البازَ فعلَ ما فعَلَ ، محافظةً عليه وعلى جوادِه ، فابتأسَ ونَدِم ، حيث لا ينفعُه الندم ، وركبَ جوادَه إلى عسكرِه كئيبا حَزينا . فأنا أيها الوزيرُ إن قتلت الحكيم دوبان خسرتَه ، وخسرَ الشعبُ كِفايتَه ، وحُرِمَ نفعَه ، كما خسِرَ الملكُ بازَه ، إذْ قتله بيدِه ، وكان يَدْفعُ عنه موتا عاجلا ، فقال الوزير : وما يخيفُنا من الحكيم دوبان إلا كفايتُه ، ما دامتْ غيرَ



مصحوبةٍ بالثقةِ به ، والاطمئنانِ إليـه ، وإذا كان قد شفاكَ من مرضٍ استعصَى على حكماءِ أمتِكَ وأطبائِها بشيءٍ أمسكتَه ، فليسَ ببعيدٍ أنْ يفجعَنا فيكَ بشيءٍ تشمُّه ، تنفيذاً لمكيدةٍ منْ أحد الملوكِ ، الطامعينَ في مُلكِك ، والغدرُ مخلوقٌ في طبعِ ابنِ آدم ، والعاقلُ من أخَذَ منهُ حذرَه ، فقال الملكُ : أنسيتَ أنَّ مِن الغدرِ قتْلَه ، وأن عاقبةَ الغدرِ وَخيمة ؟ فقال الوزير : ليْسَ ما أشير به عليكَ من قتلِه غدرا ، ولـكنّه الحَيْطةُ والحذَر ، وما أردْتُ لكَ إلا النصح والسلامةَ ما استطعت ، والأمرُ بعد ذلكَ إليكَ ، فاختلطتْ وجوهُ الرأيِ أمامَ الملكِ ، ونَجَمَ في نفسِه ناجمٌ من الخوف على حياته ، أنْ يَطوفَ عليها طائفٌ من غدرِ الحكيم دوبان وخيانتِه ، فنَزَلَ على رأيِ وزيرِه ، وقرّرَ قتله ، وأرسلَ في طلبِه .

ولما حضرَ الحكيم دوبان قال الملكُ له : أتدرى ما جئْتَ له ؟ فقال : إنما العِلمُ عندَ الله ، وعَسَى أن يكونَ خيراً ، فقال الملك : هو خيرٌ لنـا ، وأحببتُ أن أعجّلَ به ، فقال الحكيم : ويسُرنا أن يكونَ لنا يدٌ فيه ، فقال الملك : ليسَتْ يدكَ ، ولـكنّها روحكَ التى بها حياتك ، فقدْ حلمتُ بقتلِك ، ولهذا أحضرْتُك ، فدهشَ الحكيم وقال : وهلْ فعلتُ ما يستوْجب ذلك ؟ فقال الملك : وهلْ مِثلى يقتلُكَ غيلةً وغدرا ؟! فقال : ولـكنىّ لا أعرفُ لى ذنبا ، فقال الملك : إنكَ بذنبكَ عليم ، غيرَ أن أمثالكَ مِمنْ يجيئون لمثلِ ما جئتَ من أجلِه ، يخفُون في أنفسِهم ما لا يُبدونَه لضحاياهم ، وقد بلغنِي أنكَ جئتَ للتجسُّسِ علينا واغتيالنا ،

فكانَ من الحزْم أن نقتلكَ قبلَ أن تقتلنا ، فقال الحكيم : إذا كانَ من الحزمِ قتلى ، فمن الحق أنْ تتبيّنَ أمرى ، حتى لا تُصيبَنِى بجهالةٍ فتصبِحَ على ما فعلتَ من النادِمين ، فقال الملك : إن أمرَكَ لا يدعو إلى التَبيُّن الذى يبعثُ فى النفسِ اليقين ، ويكفِى فيه الأخذ بالظنّة ، وأنت قد أبرأتنى مِنْ مَرضٍ أعجز الأطباء والحكماء شفاؤه ، بشىء أمسكتهُ بيدِى ، ومن الجائزِ أن تقتُلنِى بشىءٍ أشمُّه أو ألمِسُه ، فأصبحَ من الحذرِ قتلُك ، حتى نأمَنَ مِنْ شرك ، وذلكَ ما عزمنا عليه ، ولا رَادّ له ، فقال الحكيم : أعتقدُ أن باب عفوكَ يتسعُ لمثلى ، إنْ كان ما بلغكَ عنى حقا لاريب فيه ، فكيفَ إذا كان قائما على الحدْسِ والظن ؟! فقال الملك : الحدسُ واليقينُ فى هذا الأمر سواء ، لأنه يمسّ الملكَ والعرش ، أما العفوُ ففيه مجالٌ لأن يحملَ أمثالَكَ يطمعونَ فيما طمعتَ فيه ، وقد لا نتنَبهُ لكيدهم كما انتبهنا الآن لكيدِكَ فينفذ فينا سَهمهُم ، فقال الحكيم : لا يفوتُكَ أيها الملكُ أن العفوَ عملٌ صالح ، والعمل الصالحُ وقايةٌ لصاحبه وردْء يحميه ، فقال الملك : العملُ القائمُ على التفْريطِ وعدمِ البصَرِ بالعواقبِ لا صلاحَ فيه ، فقال الحكيم : وهلاّ أجدُ عند الملكِ مُهلةً إلى الغد على أنْ أكون فى حماية حُرّاسِكَ ، حتى أكتبَ وصيتِى لأهلى ، وأحضرلكَ هديةً تذكرنى بها بعد مَوتى ؟ فقال الملك : أما الوصيةُ فسأمكنكَ منها ، ولا شأن لى بها ، وأما الهديةُ فأحبُّ أن أعرف شيئا عنْها قبلَ أن تحضِرَها ، فقال الحكيم : إنها كتابٌ من الطبّ ، إذا أنت فعلتَ

رأسي مِنْ جسمِي ، ووضعتَه في صَحفةٍ بيضاء ملساء ، ثم فتحت هـذا الـكتاب ، وعددتَ ثلاث ورقات ، وقرأت ثلاثة أسطرٍ من الصفحةِ اليُسرى ، ثم سألتَ الرأسَ عن أي شيءٍ أجابكَ عنهُ أجابة صَحيحة .

وجاء الحـكيم ، وفصلَ الملكُ رأسَه ، ووضعهُ في الصحفةِ أمامَه ، وأخذَ يقلبُ أوراق الـكتاب ، فلم تطاوعْهُ الأوراقُ إلا بعدَ أنْ بلّلَ إصبعَه من فَمِه ، فلما عدّ الثلاثة الأوراق ، لم يجدْ كتابةً في الصفحةِ اليُسرى ، فسألَ الرأسَ عَن ذلك ، فقال : استمر في عدّ أوراقِ الـكتاب حتى تعثُرَ علىَ الـكتابةِ ثم اقرأها ، فجعلَ يقلبُ الأوراقَ ورقةً ورقةً ، وفي كل ورقةٍ يبلّلُ أصبعَه من فمِه ، حتّى سَرَى السمُّ الذى في الأوراقِ في جِسْمِه ، وأحسَّ الملكُ آثارَه ، فأدركَ المـكيدة التي كانتْ مِنْ صُنعِ غدرِه ، ورمَى الـكتابَ من يَدِه ، ومالبثَ غير قليل حتى كان مع الحـكيم دوبان في عالم الفَناء ، فنطَقَ الرأسُ قائلا : حَـكموا فاستطالوا وما دَرَوْا أن الحـكمَ غيرُ باقٍ ، لو أنصفُوا أُنْصِفُوا ولـكنهُمْ بَغوا فأصبَحوا وما لهم مِن الموتِ منْ وَاقٍ ، لا تعجبُوا فهذا بذاك والحـكمُ لله الواحد الخَلاق .

فلو أن الملكَ أيها العفريت أَحسنَ إلى الحـكيم كما أحسنَ إليه ، ما أصابَه الموتُ الذى أَصابه ، وكذلكَ أنت لو قابلتَ معروفي معكَ بمعروفٍ مثلِه ، ما كُتبَ عليكَ السجنُ الذى أنتَ فيه ، والذى ستمكثُ فيهِ أبدَ الآبدِين ، ودَهرَ الداهرِين ، فقال العفريت : إنّ العاقلَ من

توقظُه النوائب من غفلَتِه، وتردُّ إليه صوابَه ، وقد عرفتُ الآن أنى لم أقدرْ معروفكَ حقّ قدره ، وأضلّتنى سَوْرَةُ الغضبِ عن الصراطِ السوِىّ ، فوقفتُ منكَ هذا الموقِفَ المنكرَ النادِر ، وقد تبتُ الآن إلى الله توبةً نصوحا ، ولكَ أن تأخذَ علىّ من المواثيقِ ما يطمئنُكَ ، ويملأُ نفسكَ ثقةً بِى ، فأخذَ الصيادُ عليهِ الميثاقَ ألا يغدرَ به ، وأن يجزيَه خير الجزاء ، وابتهلَ إلى اللهِ أن يكلأه ، إذا ما نقضَ العفريتُ ميثاقَه ، وباسم اللهِ كشف غِطاء القمقم فخرج منه دخَان كالريح العاصف ، ثم تحوّلَ إلى شبح بشع المنظر ، مُشوهِ الخِلقة ، وضربَ القمقم برجْلِه فألقاهُ فى اليَمّ ، فخشىَ الصيادُ أن يكونَ هذا نذيرَ الخيانةِ والغدرِ ، وارتقبَ فى فزَع ما عَسى أن يصنعَه العفريتُ به ، وأدْركَ العفريتُ ما ألمّ بالصياد من رعب ورهَبَ ، فقال : لا تخَفْ ولا تحزَنْ ، وسأجزيكَ بما فعلتَ خيراً جزيلا ، فاتبعْنِي إلى حَيْثُ أسير .

وسار الماردُ والصيادُ من خلفِه ، حتى وصَلا إلى جبلٍ فصعدَا فيه ، وامتطَيا صَهْوتَه ، ثم انزَلقا على سطحه الآخر ، حتى كانا فى أسفلِه ، على حافةِ بركةٍ يحيط بها أربعةُ جِبالٍ ، وفيها سمكٌ مُختلفٌ ألوانُه ؛ فمنهُ الأبيضُ والأحمر ، والأصفر والأخضر ، فأمرَ الماردُ الصيادَ أن يطرحَ فيها شبكتَه ، فأخرجتْ أربع سمكاتٍ ذات ألوان مختلفة ، فقال المارد : خذْ هذه السمكات إلى قصر المليك ، فستأخذُ ثمنالها ما يُغنيكَ ويُرضيك ، والآن أستودعُك ، ثم ضربَ الأرض برجلِه فانشقّتْ ، وهوَى فيها ثم ارتتقَتْ ، والتأمَتْ .

أما الصيادُ فقد وضعَ السمكاتِ فى قفته ، ثم حملها إلى مَنزله ، وهناك وضع السمكَ فى وعاءٍ به ماء حتى الصباح ، ثم حملهُ إلى قصر الملك ، ولما رأى الخدمُ أن السمكَ المعروضَ عليهم غريبُ الشكل أخبروا الملِكَ أمرَه ، فطلبَ الصيادَ والسمكَ إليه ، ولما رآه عجب منه ، وأمرَ أن يُعطى الصيادُ أربعَمائةِ دينار ثمناله ، فأخذها الصيادُ وانفتَلَ إلى أهله مَسرورا .

وأما السمكُ فقدْ كلفتْ بنضجه طاهية هندية ، كان قد أهداها له ملكُ الروم مُنذُ ثلاثة أيام ، ولما قارب النضجَ فى الزيت ، انشقَّ جدارُ المطبخ عن فتاةٍ هى أجمل من وقعت عليه عَينُ بَشَر ، بيدها عصا من الخيزرانِ ، فوضعتْ طرفَها فى وَعاءِ السمك وقالت : ياسمك ، ياسمك ، هَل أنتَ على العَهدِ مُقيم ؟ فرفع السمكُ رأسَه وقال : نَعمْ ، نَعمْ ، ثم كفأت الفتاةُ الوعاء ، ودخلتْ جدارَها ، فابتلعها ثم التأم ، أما السمكُ فقدْ صار حَجرا طافئا أسْودَ كالفحم .

وبينمَا الجاريةُ فى فزَعها ودَهشتِها إذ جاءهَا الوزيرُ يأمرها بإحضار السمكِ إلى الملكِ ، فبكَتْ وقصّتْ عليهِ ما رأتْ ، فعجبَ الوزيرُ وأرسلَ فى طلبِ الصيادِ ، وأمره أنْ يحضر أربعَ سمكاتٍ غيرهن فى التوِّ والساعة ، ومكث مع الجارية ليرَى هو نفسُهُ ماذا يكونُ من أمر السمك ، ولكنهُ لم يجدْ إلا ما قصته عَليه الجارية ، فدهش وتحيّرَ ثم قال : ذلك أمر لا ينبَغى إخفاؤُه على الملكِ ، وألقى فى سَمعِ الملكِ ما قصتْه الجاريةُ ، وصدقتهُ رؤيتُه ، فأمر الصيادَ أن يأتيه بأربع سمكاتٍ ، وأشرف الملكُ نفسُه على



نضج السمك في تلك المرة الثالثة ، فرأى ما رأته الجارية ورآه الوزير ، إلا أن الجدار في هذه المرة انشق عن عبد أسود ضخم الجثة ، في يده عصا من شجرة ، فعجب الملك وأمر بإحضار الصياد فسأله : من أين تأتى بهذا السمك ؟ فقال : من بركة واسعة خلف هذا الجبل . الذى يشرف على مدينتك . وبيننا وبينها مسيرة نصف ساعة ، فزاد الملك عجبا ودهشة ، وسأل من حوله من الوزراء والعسكر : هل منكم من رأى هذه البركة ؟ فقالوا : لم نرها ، ولم نعلم شيئا عنها ، فقال : هيا بنا إليها ، ولن أعود إلى مدينتى هذه حتى أعرف أمر هذه البركة .

وسار في جنده وحرسه ووزرائه ، وكثير من أعيان المدينة ورجالها ، ونزلوا على حافة البركة ، فضربوا خيامهم وأقاموا ، ثم أسر إلى وزير من وزرائه ، معروف بالحنكة والخبرة ، أن يجلس على باب خيمته ، حتى يخرج وحده ، على غفلة من الناس وخفية ، ليعرف هو نفسه أمر هذه البركة ، ثم يعود إلى خيمته ، دون أن يعلم ذلك أحد ممن معه .

ثم تنكر في زى أحد من الناس ، وجعل خنجره في جيبه ، وخرج يمشى على حافة البركة ، لعله يرى شيئا جديدا ، أو يعثر على أحد ، يقفه على حقيقتها ، وطال به المسير حتى لاح له شبح أسود ، فأسرع إليه ، فوجده قصرا منيفا ، مبنيا بحجارة سوداء ، ومصفحا بالحديد ، قد أغلق أحد مصراعى بابه ، وفتح الآخر ، فطرق الباب طرقا خفيفا ، ثم طرقه طرقا عنيفا ، ثم أشد عنفا ، فلم يجبه أحد ، فدلف من الباب إلى

دِهليزٍ مُستطيلٍ وجَملَ ينادى : عابرُ سبيلٍ يَبغى ماءً وزادا ، فلم يستجبْ لندائه أحد ، فانفلتَ منه إلى رحَبةٍ فسيحةٍ وَسط القصْرِ ، مسقوفةٍ بشبكةٍ تحولُ دُونَ الصّعودِ منها والنزولِ مِن الجو إليها ، يتوسطُ هذه الرحبَة فَسقيّة ، عليها تماثيلُ لأرْبعةِ سباعٍ من الذهب ، يسيلُ الماء منْ أفواهها كأنهُ ذائِبُ اللُّجَين ، وقام على حافتها تماثيلُ منْ طيورٍ مختلفة الأصْنافِ ، ولم يجدْ أحداً ، فجلسَ فى حيرةٍ من أمْرِه ، وعجبٍ مما يرَى ، وإذْ هوَ يستمعُ لأنينٍ طويلٍ حزينٍ ، فأصغَى إليه فإذا هو يسمَع : « وقد بدَا الحزنُ وظهرَ ، وبُدّلَ بالنّومِ السهرَ ، وساقت بِىَ المشقةُ والخطر » فَنهضَ قائما واسترقَ الخُطا نحو ذلكَ الأنين ، حتى كانَ أمام سِتر مُسْبلٍ فرفعَه ، فإذا هو أمام شابٍّ هو آيةٌ فى الجمال وحُسنِ التقْويم ، جالسٍ على سَرير ، ويرتدى قباءً منْ حَريرٍ مطرزٍ بالذّهب ، فسلمَ الملكُ عليهِ وحَيّاه ، فردَّ عليهِ تحيته ، ورجا مِنْه أنْ يعذرَه فى عدم استطاعتِهِ القيامَ لاستقبالِه ، فقال الملكُ : لكَ عذرُكَ ، ولا ضَيْرَ عليْكَ ، وأرجو منكَ أن تخبرنى أمر هذه البركة وسمكها وقصرها هذا ، ووَحدَتَكَ هذه التى لا أنيسَ لكَ فيها ، فأجابه الشابُّ بالبُكاء المضْنِي ، الذى يحرقُ الكُبودَ ، ويَشُق المرائرَ ؛ فقال الملك : وما يبْكيك . أيها الشاب ؟ فقال : كيفَ لا أبكى ، وتلك حالى ؟ ! ومدَّ يدَه فكشَفَ الغطاءَ عنْ نصفه الأسفَل ، فإذا هُوَ حجَر ، ثم قال : ستَسْمعُ عجبًا ، وستَعلمُ ما فيه تبصِرةٌ وعِبرَة .

كان والدى محمودٌ ملِكَ هذه المدينة ؛ وصاحبَ هذه الجبالِ التى تحيطُ بالبركة ، قضَى عشرين عاما فى الملكِ والحكْم ، ثم لِحقَ بِربه ،

ووُلّيتُ الملكَ من بَعدِه، وأملكتُ بابنةِ عمّي، وعِشتُ معها عشرةَ أعوام، على خيرِ ما يَبغى الزوجان، من محبةٍ وألفةٍ ووئام، ولم يُعكرْ صفوَ هذه الحياةِ على زوجي إلا أنها لم تُرزقْ بنتٍ أو وَلَد، وكان سُجَرائي من الأصدقاء، وخلطائي من الوُزراء، لا يفتأونَ يذكرونَ الولَد، ويبتغونه لي، ويحببّون إلىّ الزواجَ من فتاةٍ أُخرى وَلود، حِرْصا على مُلكي، وخشيةَ أنْ ينقطعَ حبلُه بانقطاع نَسْلِي، وتُشرِق شمسُ هذا الملكِ في بيت عدُوّ لى من بَعدِى، فتزوجتُ منْ فتاةٍ يَرفّ على بيتها الأملُ الباسِمُ، وأرصُد في سمائها الكوكبَ القادم، وكانت زوجَتى الأولى ماهرةً في السِّحر، فدفعتْها موجةُ الغيرةِ إلى أنْ جعلتْنِي كالطائر المَهيضِ، يلتصِقُ بالأرضِ وبصرُه في الفَضاء، ومَسختْنى بالسِّحرِ على نحوِ ما ترَى، ومَسخَت المدينةَ سَمكا، وجعلتْ لونَ المسلمين أبيض، ولون المجوس أحمر، ولون النصارى أزرق، ولون اليهود أصفر، وجعلت الجزائرَ الأربعَ جبالا كما ترى، وهى تَحْيا في هذا القصرِ، متمتعةً بحياةٍ هانئة، ما دُمنا بسحرِها في قبضةِ يدها، فهزّ الملكُ رأسه وقال: أَبشرْ بالخير العاجلِ إنْ شاء اللهُ تعالَى، وأطرقَ مُفكراً في حِيلةٍ تُعيدُ الشابَّ والمدينةَ والجزائرَ وأهلَها إلى سيرتِهم الأولَى، وتقْضى على تلك الزوجةِ ليأمنوا من شَرها، ثم أخذَ يجولُ في أنحاء القصرِ باحثا عنها، فألفاها جالسَةً في حجرتِها، متلفعةً بفضْلِ كبْريائها وسُلطانِها، فسَلّمَ وحَيّا، فعجبَتْ أن جاءها هذا الإنسانُ، وهى تعلمُ أن المدينةَ مُسخت، وليس فيها أحدٌ من بَنى آدم، وبَدا عَجبُها في نظرتِها وسُهومِها، ثم قالت: مَنْ أنت؟

وما جاء بكَ إلى هنا ؟ فقال مابرٌ أوتِيَ الحكمةَ ، أَوَى إلى هذا القصرِ مُبتغيا راحة ، فقالت : وهل عثرتَ فيه على أحدٍ غيرى ؟ فقال لمْ أرَ غيرَ وجهك الكريم ، فقالت : اجلسْ على هذا الكرسى ولا بأسَ عليك ، ثم سألت : وما أوتيتَ من الحكمة ؟ فقال أوتيتُ علما لا أدعُ به أثراً لعُقمٍ لدى زَوج أو زوجة ، فقالت : ولو كانَ هذا العقم بعيدَ العهدِ بصاحبِه ، فقال : ولو أنه عجوز عقيم ، فقالت : إنى ماهرةٌ فى فى السحر ، وستعلمُ من قصتى مَبْلغَ قوتى فيه وقدرتى ، ثم قصتْ عليه تاريخَها وتاريخَ زوجها ، وما فعلتْهُ من المسْخ فى ملكه ومُدنِه وشعبه ، فقال : لئن أرجعتِ زوجكِ وملكَهُ ومدنَه وشعبَه إلى حالتِهم الأولى ، ولم تعلقى من زوجكِ فى مدة شهرٍ فلكِ أن تمسخِيهم وتمسخِينى معهم كما تشائين ، وإنى أبشركِ بغلامٍ زكىّ ، يكونُ لكِ قُرةَ العين ، ومَسرة الفؤاد ، فقالت : لئن لم تفعلْ ما وعدْتنِى به لأمسخنّكَ خنزيرا تَغشى المزابلَ ، وتطعَمُ أقذرَ الزّاد ، فقال : لكِ ذلك ، ولا أزالُ أبشرُكِ ، ثم استأذنتهُ أنْ تذهبَ إلى حجرةٍ أخرى ، لتتلُوَ ما تعرفُ منْ آيات سحرها ، وما لبثتْ غير فترة قصيرة ، حتى رأى الحالَ قد تغيرَتْ ، وعاد كلٌّ إلى ما كان عليْهِ ، وكانَ هذا الملكُ قدخبأ خنجرا حادّا فى جَيبه ، فلما دخلتْ عليه قال : وأرَى ألاّ تُقابِلِى زوجكِ الذى لم أرَه ، حتى أفِىَ بوعْدى معكِ ، ولا يأخذُ علاجِى لعُقمكِ ، إلا بمقدار ما أخذت من الوقتِ فى إرجاع المدينةِ والجزائرِ إلى ما كانت عليه ، ثم أجلسَها على كرسىّ أمامَه ، ووقفَ من خلفِها ، يمسحُ بيدِه على رأسِها ، وهو يقرأ ما يقرأ ، ثم سَلّ

خنجره من جَيبه ، وغرزه في صدرها ، فخرّت على الأرض جثة هامدَة ، وتركها إلى الشابّ يهنئه بسلامته ، وقتلِ زوجته ، مبعث شقوته ، وبلاء قومه ، ثم قال للشابّ الذى كان مسحورا ، هذه نعمةُ الملكِ والحياة السعيدةِ قد رجعت إليك ، وهذه زوجتُك الغادرةُ الجاهلةُ ، قد قضى عليها غدرُها ، وساقها إلى حتفها ، وإنى أستودعك راجيالك التوفيقَ والسلامة ، فقال الشاب : إنّ صُحبَتى إياكَ أحبُّ إلى نفسى مِنْ ذلكَ الملكِ الذى تراه ، ولن يفرّقَ بينى وبينَك إلا القضاء المحتوم ، وكما كنتَ سبب حياتى فأنا من الساعةِ ابنُك ، الذى لا يتركُ صحبتَك ، فقال الملك : وإنى لسعيدٌ بهذه البُنوّة ، وأحمدُ الله الذى وهبَ لِى على الكِبَرِ شابا زكيّا ، يرثنِي من بعدِى ، ويخلفُنِي فى مُلكى ثم أعلنَ الشابُ فى قومهِ ، أنه ذاهبٌ لزيارة قبرِ النبي صلى الله عليه وسلم ، واستخلفَ فيهم أكبرَ وزرائه ، وسافرَ مع الملكِ إلى بلاده ، وهناك وجدَ قومه على أحرّ من الجمْر ، فى انتظار أوبَتِه ، فاستقبلوه فرحين مستبْشرِين ، ولما استقرّ به المقام قصّ على وزيرِه ، ما جرَى فى غيبتِه ، وأمر أن يحضر إليه الصيادُ ، الذى كانَ سَببا فى نجاة المدينة والجزائر من كيد الزوجة الغادِرة ، فأسبغَ عليه نِعَمه ظاهرةَ وباطِنة ، وأدنى منه منزلتَه ، وسأله عن أبنائه ، فقال : رزقنى الله ابنًا وبنتين ، جعلَ الملكُ ابنَه على خزائنِ مُلكه ، وتزوّجَ إحدى بنتيْه ، وزوّجَ الشابّ بنتَه الثانية ، واتخذَهُ عَميدَ وزرائه ، وطابتْ لهم الحياةُ على هذِه الحال ، وكانَ اللهُ على كل شيءٍ مقتدرا .

رقم الإيداع ١٩٩١/٣٤٤٥ الترقيم الدولى ISBN 977-02-3237-8 ١/٩٠/١٧٧
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

ألف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهر زاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكافى
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبوالحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف

قرش جنيه
٥٠ ٣
جنيه